



أعمالُ القلوبِ في مجالسِ رمضانَ

قرأه هذا الكتابُ على
فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر البراك
حفظه الله ونفع بعلمه

بقلم
عبد الله العنزي

ح عبد الله العنزي، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العنزي، عبد الله

أعمال القلوب في مجالس رمضان". / عبد الله العنزي. - الرياض، ١٤٤٢ هـ

١٦٠ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٧٠٧١-٠٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد ٢- الفضائل الإسلامية أ- العنوان

١٤٤٢/٦٠٥٣

ديوي ٢١٣

رقم الإيداع : ١٤٤٢/٦٠٥٣

ردمك: ٩-٧٠٧١-٠٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
 نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
 فإن أعمال القلوب كالمحبة والخوف والرجاء والإخلاص والتضرع
 وغيرها؛ لها مكانة عالية ومنزلة رفيعة؛ ومن ذلك:

١ - أن أعمال القلوب من الإيمان؛ إذ الإيمان له ظاهر، وهو أعمال
 الجوارح، وباطن وهو أعمال القلوب.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى:

(الإيمان له ظاهرٌ وباطنٌ، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح،
 وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهرٌ بلا باطن^(١)).

٢ - أن أعمال القلوب هي روح العبودية ولبُّها.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى:

(فعمل القلب هو روح العبودية ولبُّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه
 كان كالجسد بلا روح^(٢)).

٣ - أن أعمال القلوب هي أصل الإسلام؛ الذي هو الاستسلام لله
 وحده.

(١) الفوائد ص (٥٥).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٩٣).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى :

(دين الإسلام : الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ، وَبَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ؛ هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ لِلَّهِ وَحْدَهُ. فَأَصْلُهُ فِي الْقَلْبِ: هُوَ الْخُضُوعُ لِلَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ) ^(١).

٤ - أن أعمال القلوب هي أصل التقوى؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرًا اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ويقول الرسول ﷺ: (التَّقْوَى هَاهُنَا)، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ^(٢).

ولما كان شهر الصيام المقصود منه التقوى، كما قال - تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، كان تعلُّم أعمال القلوب، وتذكُّرها وتدارُّسها، والقيام بها في هذا الشهر المبارك هو نورٌ على نور.

ولهذا جاءت هذه الرسالة؛ «أعمال القلوب في مجالس رمضان» تذكيراً
لنفسى وإخوتي، وتعاوناً بيننا على البر والتقوى.

وقد يسر الله - جل ثناؤه - لي أن أقرأ هذا الكتاب على شيخى الفاضل
عبد الرحمن بن ناصر البراك - حفظه الله ونفع بعلمه - فكان يرشدني إن
رأى مني خطأ، كما كان يوجهني أحياناً بزيادة أو حذف، فجزاه الله عني
خير الجزاء.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٣)

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

المجلس الأول

أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد خلق الله -جل وعلا- الخلق لغاية عظمى؛ وهي عبادته وحده لا
شريك له، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
وقد عرّف شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- العبادة تعريفاً
جامعاً، فقال:

(الْعِبَادَةُ: هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ -تَعَالَى- وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ
وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصَّيَامُ وَالْحَجُّ -إِلَى أَنْ قَالَ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَتُهُ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ وَإِخْلَاصُ
الدِّينِ لَهُ...) (١).

ومن هذا التعريف الجامع لأنواع العبادة، يتبين أن العبادة تنقسم إلى
قسمين:

- ١ - أقوال وأعمال ظاهرة؛ وتسمى (أعمال الجوارح).
- ٢ - أقوال وأعمال باطنة؛ وتسمى (أعمال القلوب).

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٤٩ - ١٥٠).

ولبيان أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم عمومًا وفي شهر رمضان خصوصًا؛ لا بد لها من مقدمة يسيرة ألا وهي:

إن فئامًا من المسلمين يظنون أن أعمال القلوب؛ كالمحبة والخوف والرجاء والإخلاص والصدق والتسليم والخشوع وغيرها من أعمال القلوب هي من الأعمال الفاضلة المستحبة التي إن قام بها المسلم فله أجر ومثوبة، وإن لم يقم بها، أو قصر فيها فلا شيء عليه.

فالأجر الكامل -في ظنهم- المترتب على أي عبادة هو خاص بأعمال الجوارح، فمتى ما قام بها العبد ظاهرًا فقد أدى الواجب وأخذ الأجر كاملاً، أما أعمال القلوب المتصلة بتلك العبادة فإن أتى بها فله أجر، وإن لم يأت بها فلا شيء عليه، وهذا الأمر في الحقيقة غير صحيح.

ذلك أن كل عبادة من العبادات لها جانبان: جانب ظاهر؛ وهو أعمال الجوارح، وجانب باطن؛ وهو أعمال القلوب، وكلاهما داخل في تلك العبادة، كما أنهما سبب في الأجر.

فالتقصير والإخلال بأحدهما تقصير وإخلال في العبادة نفسها، بل إن التقصير في أعمال القلوب قد ينقص الأجر أعظم من التقصير في أعمال الجوارح؛ ذلك أن أعمال القلوب هي الأصل والأساس، وواجباتها أشد وجوبًا من واجبات أعمال الجوارح.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فَوَاجِبَاتُ الْقُلُوبِ أَشَدُّ وَجُوبًا مِنْ وَاجِبَاتِ الْأَبْدَانِ وَآكَدُ مِنْهَا، وَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، بَلْ هِيَ مِنْ بَابِ الْفَضَائِلِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ، فَتَرَاهُ يَتَحَرَّجُ مِنْ تَرْكِ وَاجِبٍ مِنْ وَاجِبَاتِ الْأَبْدَانِ، وَقَدْ تَرَكَ مَا هُوَ أَهَمُّ؛ مِنْ وَاجِبَاتِ الْقُلُوبِ

وأَفْرِضْهَا ، وَيَتَحَرَّجُ مِنْ فِعْلِ أَذْنَى الْمُحَرَّمَاتِ ، وَقَدْ ارْتَكَبَ مِنْ مُحَرَّمَاتِ الْقُلُوبِ مَا هُوَ أَشَدُّ تَحْرِيمًا وَأَعْظَمُ إِثْمًا^(١).

وبعد هذه المقدمة اليسيرة، أشرع مستعيناً بالله تعالى في بيان أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم عموماً، ومن ثم أُعَرِّجُ بعد ذلك على أهميتها في شهر رمضان المبارك خصوصاً؛ فمن ذلك:

١ - أن العبد يوم القيامة محاسب ومجازى على أعمال قلبه، كما هو محاسب ومجازى على أعمال جوارحه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ^(١) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ^(٢)﴾ [العاديات: ٩-١٠]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ^(٣)﴾ [الطارق: ٩].

٢ - العبادات القلبية هي الأصل، والعبادات البدنية تبع ومكملة؛ إذ إن العبادات القلبية روح العبادات البدنية، ولهذا فهي أكد منها، ولكن هذا المعنى لا يقتضي -التقليل من شأن العبادات البدنية، فمن العبادات البدنية ما تَرَكُّهَا كفرٌ؛ كالصلاة مثلاً، ومنها ما لا يكون صلاح الأمة وحفظ بيضتها إلا به؛ كالجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وغيرها.

٣ - أن تفاضل أعمال العباد عند الله -جل وعلا- بتفاضل ما في قلوبهم من أعمال القلوب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فَإِنَّ الْأَعْمَالَ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ، وَإِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)^(٢).

(١) إغاثة اللفهان (٢/ ٩٢٤) طبعة دار عالم الفوائد.

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٢١، ٢٢٢).

٤- أن القلب وما فيه من أعمال هو محل نظر الرب -تبارك وتعالى- قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)^(١)، فتأمل كيف ذكّر أولاً القلب وما فيه من عباديات، ثم ذكر أعمال الجوارح.

وفي هذا يقول ابن تيمية -رحمه الله: (وَالْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ لَا تَكُونُ صَالِحَةً مَقْبُولَةً إِلَّا بِتَوْسُطِ عَمَلِ الْقَلْبِ)^(٢).

٥- أنه بصلاح القلب تصلح الجوارح، وبفساده تفسد الجوارح؛ فهي تبع له، قال ﷺ: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)^(٣).

٦- أن لذة العبادة، والطمأنينة فيها، والأنس بها، لا تكون إلا بتحقيق أعمال القلوب أثناء القيام بتلك العبادة، فمن أراد لذة العبادة وقرة العين، وراحة النفس، وانشراح الصدر، فليسع سعي السابقين بالخيرات.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١١ / ٣٨١).

(٣) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

المجلس الثاني

أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

وبعد ذكر أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم على وجه العموم، أذكر - بعون الله تعالى - أهمية أعمال القلوب في شهر رمضان المبارك؛ فمن ذلك:

١ - أن صدق التعبد لله - تعالى - بأعمال القلوب في شهر رمضان يعين العبد - بتوفيق الله - على عدة أمور؛ منها:

أ- يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى آدَاءِ الصِّيَامِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

فقوله ﷺ: (من صام رمضان) هذه أعمال الجوارح.

وقوله - عليه الصلاة والسلام: (إيمانا واحتسابا) هذه أعمال القلوب.

وثواب ذلك: (غفر له ما تقدم من ذنبه).

ولا يكون الغفران إلا مع كمال الظاهر والباطن أو ما يقاربه.

ب- يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى الْحِرْصِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِبَادَاتِ؛ كَالصَّلَاةِ فَرَضًا وَنَفْلًا، وَعَلَى الْقُرْآنِ تِلَاوَةٍ وَتَدْبِيرًا، وَعَلَى الصَّدَقَةِ إِنفَاقًا وَبَذْلًا، وَعَلَى الْعُمْرَةِ طَوَافًا وَسَعْيًا وَغَيْرَهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ.

فالعبادات الباطنة - بتوفيق الله - عونٌ على العبادات الظاهرة.

(١) رواه البخاري (٢٠١٤) ومسلم (٧٦٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (إِذَا حَسُنْتَ السَّرَائِرُ أَصْلَحَ اللَّهُ الظُّوَاهِرَ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ)^(١).

ج- يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى اجْتِنَابِ كُلِّ مَا يُنْقِصُ أَجْرَ صِيَامِهِ مِنْ ذُنُوبٍ وَمَعَاصٍ، أَوْ مَا يَكْدِرُ صَفْوَ عِبَادَتِهِ أَوْ مَا يَشْغَلُهُ عَنْهَا.

والإقبال على العبادات - خاصة الواجبة - واجتناب ما ينقص الصيام من ذنوب ومعاصٍ هو في الحقيقة من كمال الصيام.

٢- أن صدق التعبد لله تعالى بأعمال القلوب في شهر رمضان يشعر العبد بحلاوة الإيمان والأنس والفرح والسكينة والطمأنينة.

ولا شك أن الناس متفاوتون في ذلك، فبقدر تحقيقهم لأعمال القلوب تكون لذة الإيمان والأنس والفرح والسكينة والطمأنينة في قلوبهم؛ ومن لم يجد ذلك في قلبه، فليتدارك تقصيره في القيام بأعمال القلوب؛ ذلك لأن أعمال القلوب هي روح أعمال الجوارح ولُبُّها، فأعمال لا روح فيها فهي مواتٌ لا ثمرة لها، نسأل الله العافية.

٣- أن صدق التعبد لله تعالى بأعمال القلوب في شهر رمضان سبيل - بعون الله وتوفيقه - إلى الاستقامة على الصراط المستقيم بعد انقضاء شهر رمضان.

فإن العبد إن كان مُفَرِّطًا قبل رمضان تَدَارَكَ تَفْرِيطَهُ، وإن كان مقصرًا أَتَمَّ نُقْصَانَهُ، وإن كان على خير ازداد من أبواب الخير وثبت عليها.

❖ فَحَرِّئْ بِمَنْ عَاشَ مَعَ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا وَسَمَاعًا وَتَدْبِيرًا وَخُشُوعًا.
❖ وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا.

- ❖ ومن قام رمضان إيمانًا واحتسابًا.
- ❖ ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا.
- ❖ ومن تخرج من مدرسة الصيام التي عنوانها "الصبر".
- ❖ ومن نال جائزتي الصيام في الدنيا:

الأولى: التقوى في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

الثانية: [غفر الله ما تقدم من ذنبه].

حَرِيٌّ بمن هذه حاله أن يستقيم على الصراط المستقيم إلى أن يلقي ربه
جل وعلا.

وليحذر أن يكون ممن يمرُّ عليهم شهر رمضان سنين عددًا، ولم يغيروا من
أحوالهم شيئًا، ولم يتداركوا نقصهم وتَفَرِّطَهُمْ، نسأل الله لنا جميعًا الهداية
والاستقامة.

وفي نهاية بيان أهمية الأعمال القلبية يجب التذكير ببعض الأسباب المعينة
بتوفيق الله على القيام بأعمال القلوب كما ينبغي، والله المستعان وعليه التكلان:

١ - الإكثار من الدعاء، في جميع الأوقات؛ وخاصة في أوقات ومواطن
الإجابة.

٢ - إن لكل عبادة قلبية ما يُضَادُّهَا من أمراض القلوب؛ كالكبر والحسد
والرياء والسمعة والعجب وحب الشهوات ومعاصي الجوارح،
فيجب على العبدِ اسْتِفْرَاقُ قَلْبِهِ وتطهيره من هذه الأمراض، وَكَفُّ
جوارحه من المعاصي؛ كَيَ يَكُونَ الْقَلْبُ مُهَيَّئًا للقيام بهذه العبادة
دونَ كَدَرٍ أو تَنَغِيصٍ.

٣ - استحضار العبادة القلبية قبل الشروع في العبادة البدنية؛ فالمصلي
يستعد للصلاة بالوضوء قبلها؛ فلذلك ينبغي له أن يهيئ لقلبه

أسباب الخشوع قبل الشروع في الصلاة.

٤- الإكثار من الدروس التي تُعنى بأعمال القلوب حضوراً وسماعاً.

٥- الإكثار من قراءة الكتب التي تُعنى بأعمال القلوب؛ ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وغيرها من كتب السلف.

٦- الاهتمام في تربية الناشئة من ذكور وإناث على أعمال القلوب، ومتابعتهم في ذلك في صغرهم وحال كبرهم، لينشأ عليها الصغير ويهرم عليها الكبير، كما يُرَبَّوْنَ على أعمال الجوارح، ولكن يُعطى الناشئة بالتدرُّج بما يناسب عقولهم وإدراكهم واستعدادهم وسِنِّي أعمارهم؛ فكل بِحَسَبِهِ، فَيُعَلِّمُ تَعْظِيمُ اللَّهِ ومحبته والرجاء له وغيرها من أعمال القلوب بالتدرج شيئاً فشيئاً، حتى إذا ناهز البلوغ وجَرَى عليه قلم التكليف تكون لديه ملكة -بإذن الله- على إدراك أعمال القلوب والقيام بها، فمثلاً عندما يُعَلِّم الصغير كيفية الصلاة ووجوب المحافظة عليها، كذلك يُعَلِّم كيفية الخشوع وأسبابه، ويعلم أنه ليس له من صلاته إلا ما خضع فيها.

وعندما يُعَلِّم كيف يقرأ القرآن ويحفظه، يُعَلِّم كذلك فضل الخشوع في القراءة وتدبر الآيات.

كما يُعَلِّم أَنَّ الإخلاصَ لله شرطٌ في قَبُولِ الأَعْمَالِ؛ وَأَنَّ العملَ الذي لا إخلاصَ فيه لا يَقْبَلُهُ اللهُ تَعَالَى.

٧- مصاحبة أهل التقى والفضل؛ الذين رؤيتهم ومجالستهم تُذكِّرُ بالله جل وعلا.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثالث

التأهب والتهيؤ لشهر رمضان المبارك «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن التأهب والتهيؤ قبل العبادات أمر مطلوب شرعاً؛ سواء كان حسيّاً؛
كالوضوء للصلاة والسحور للصيام والإحرام للحج والعمرة وغيرها، أو
كان معنويّاً؛ ككثرة الذكر والاستغفار والتوبة واستحضار النية
والإخلاص وغيرها.

ولقد كان هذا التأهب والتهيؤ دأب أولياء الله المتقين، بل صفوته
المخلصين؛ ومن الأمثلة على ذلك:

١ - لما كان لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- عند الله منزلة عالية، وهي
منزلة الخلّة، التي لا يشاركه فيها أحد إلا نبينا محمد ﷺ اختبره
-جل وعلا- وابتلاه ببلاء مبين، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال
محبة لربه، وخلته؛ فإن إسماعيل -عليه السلام- لما وهبه الله
لإبراهيم، أحبه حبّاً شديداً، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-
خليل الرحمن، والخلّة أعلى مراتب المحبة؛ لذا أراد -تعالى- أن
يصفني وده ويختبر خلته -وهو العليم الخبير- فأمره بذبح ابنه بيده،
فلما قدّم حبّ الله، وآثره على هواه، وعزّم على ذبحه، بقي الذبح لا

فائدة فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (١٠٦) وَفَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿[الصفات: ١٠٦-١٠٧]﴾^(١).

فمن أراد أن يُنزله الله - جل جلاله - منازل المحبين في هذا الشهر المبارك، فعليه أن يُهيئ قلبه بِذَبْحٍ ما فيه:

- أ- مِنْ هَوًى أَوْ شَهْوَةٍ أَوْ شَبْهَةٍ تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَحَبَّةِ رَبِّهِ - جل وعلا.
- ب- أَوْ مَا فِيهِ مِنْ مَحَبَّةٍ - وإن كانت مباحة - تُزاحمُ مَحَبَّةَ اللَّهِ - جل جلاله - أَوْ مَحَبَّةَ رَسُولِهِ .

وهذه القصة العظيمة وهذا البلاء المبين لنا فيه عبرة وعظة، فحقيقة الأمر أنه لا يُعَابَ على المسلم في محبته لوالديه أو زوجته أو أبنائه أو إخوته أو شيء من ملاذ الدنيا المباحة؛ شَرِيطَةً أَنْ لَا يُقَدِّمَ أَوْ يُزَاحِمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ - جل وعلا - ورسوله في قلبه.

٢- عندما أراد الله - سبحانه وتعالى - أَنْ يُنَزِّلَ عَلَى مُوسَى - عليه السلام - التوراة بعد إهلاك فرعون وقومه، وَقَّتْ لَهُ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَتَمَّتْهَا - جل جلاله - بعشر، قال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فصام موسى - عليه الصلاة والسلام - تلك الأيام وكان يتعبد لله فيها^(٢)، تَهَيُّؤًا لِوَعْدِ اللَّهِ.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: (فَصَارَتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ؛ لِيَسْتَعِدَّ مُوسَى وَيَتَهَيَّأَ لِوَعْدِ اللَّهِ)^(٣).

(١) انظر: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ص (٧٠٦) طبعة دار الرسالة، بتصرف يسير.

(٢) انظر: (معالم التنزيل) للبعوي (١٤٦/٢)، و(تفسير القرآن العظيم) لابن كثير (٥٧٢/٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير المنان لعبد الرحمن ناصر السعدي ص (٧٠٢) طبعة مؤسسة الرسالة.

فمن أراد أن يتلذذ بمناجاة ربه - جل وعلا - صلاة وذكرًا، تلاوة ودعاءً في هذا الشهر الكريم؛ فعليه أن يهيب قلبه بأن يصومه، وكذا لسانه وجوارحه عما يغضب ربه - جل ثناؤه.

حينها لا تسأل عن لذة المناجاة التي تغمر قلبه، وتطمئن روحه، وتُسكن نفسه، نسأل الله من فضله العظيم.

٣- لقد شقَّ صدرُ النبي ﷺ في صغره، وهو في بني سعد فاستخرج جبريل - عليه السلام - قلبه، واستخرج منه علقة سوداء، وقال: (هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ) ثم غسَّله في طستٍ من ذهبٍ بهاء زمزم، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْخَيْطِ فِي صَدْرِهِ) ^(١).

ثم شقَّ صدره ﷺ مرةً أخرى ليلة الإسراء والمعراج وغسله جبريل - عليه السلام - بهاء زمزم، وجاء بطستٍ ممتلئٍ حكمةً وإيمانًا فأفرغه في صدره ^(٢).

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - عن حادثي شق صدره ﷺ وهو في صغره، وليلة الإسراء والمعراج، (وَكَانَ هَذَا زَمَنُ الطُّفُولَةِ فَنَشَأَ عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْعِصْمَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ - إِلَى أَنْ قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: ثُمَّ وَقَعَ شَقُّ الصَّدْرِ عِنْدَ إِرَادَةِ الْغُرُوجِ إِلَى السَّمَاءِ لِيَتَأَهَّبَ لِلْمُنَاجَاةِ) ^(٣).

(١) رواه مسلم (٢٦١).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٣، ١٦٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

فمن أراد أن تَعْرُجَ رُوحُهُ إلى الملكوت الأعلى؛ لِيَرَى بِعَيْنِي قَلْبِهِ من آيات ربه الكبرى، فليهيئ قلبه بغسله بهاء التوبة، وليملأه بالمعاني الإيمانية والفتوحات الربانية؛ وذلك بالمسارعة بتقوية إيمانه، واستجلاب واستمطار نفحات ربه - جل وعلا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى:

(فَالْدَاعِي وَالسَّاجِدُ يَوْجَهُ رُوحَهُ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَالرُّوحُ لَهَا عُرُوجٌ يُنَاسِبُهَا ، فَتَقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِلَا رَيْبٍ بِحَسَبِ تَخَلُّصِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ ، فَيَكُونُ اللَّهُ مِنْهَا قَرِيبًا قُرْبًا يَلْزَمُ مِنْ تَقَرُّبِهَا) ^(١).

ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

وقال عليه السلام: « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » ^(٢).

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مجموع الفتاوى (٥ / ٢٤١).

(٢) رواه مسلم (٤٨٢).

المجلس الرابع

التأهب والتهيؤ لشهر رمضان المبارك «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

التأهب والتهيؤ لشهر رمضان يكون على مرحلتين:

المرحلة الأولى: التأهب والتهيؤ قبل شهر رمضان؛ ليَكُون القلبُ مستعدًّا
لاستقبال هذا الشهر المبارك، لِيُعْطَى الْعَبْدُ -بفضل الله- ثِمَارُهُ، وَيَنَالَ جَائِزَتَهُ.

ويكون هذا التأهب والتهيؤ بأمور؛ منها:

- ١- التوبة الصادقة بشروطها من الذنوب والمعاصي؛ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا،
ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا، مع كثرة الذكر والاستغفار.
- ٢- تطهير القلب واستفراغه من الشهوات والشبهات؛ لأنها تجذب القلب
إليها وتشغله عن الطاعات والمساورة إليها، وتُكَدِّرُ عليه صَفْوَ قَلْبِهِ.
- ٣- استشعار فضل الصيام، وفضل هذا الشهر المبارك لِيَقْوَى رَجَاؤُهُ،
وَيَنْشَطَ قَلْبُهُ وَبَدَنُهُ على القيام بالعبادات على أكمل وجه.
- ٤- القراءة في الكتب التي تُعْنَى بأحكام الصيام؛ لئلا يقع في ما يفسد
صومه أو يقلل أجره.

كما يقرأ في الكتب التي تُعْنَى بأعمال القلوب خاصة ما يتعلق
بالعبادات التي يكثر القيام بها في رمضان؛ كالخشوع في الصلاة، والتضرع
في الدعاء، والإخلاص، وغيرها.

المرحلة الثانية: التأهب والتهيؤ أثناء رمضان؛ لِيَبْقَى القلب حاضراً مقبلاً متوقداً والبدن قوياً نشيطاً، فَيَتَوَافَقُ القلبُ والبدنُ في المسارعة إلى الطاعات؛ فلا يَعْتَرِيهِ فُتُورٌ وَلَا مَلَلٌ، وَلَا يَتَمَلَّكُهُ عَجْزٌ وَلَا كَسَلٌ.

ويكون هذا التأهب والتهيؤ بأمور؛ منها:

١ - أن يكون العبد على تهيؤ مستمر، وتأهب دائم، فكلما رأى من قلبه انصرافاً وفُتُوراً، أو من بدنه كسلاً وخمولاً؛ شَحَذَهُ وَجَدَدَهُ بكثرة الذكر والاستغفار والدعاء.

٢ - أن يكون العبد مجتهداً في عدة أمور؛ منها:

أ. حفظ قلبه عن الخواطر والشواغل كبرامج التواصل الاجتماعي، وبرامج الهواتف الذكية، كذلك اللقاءات الاجتماعية التي تشغل العبد عما هو خير له في هذا الشهر المبارك.

ب. حفظ قلبه وبصره عن مشاهدة القنوات الفضائية: لما فيها من ندوات ومحاضرات مثيرة للشبه، ومن أفلام هابطة ومسلسلات ماجنة مثيرة للشهوات، فما والله أولئك إلا (سُرَّاقُ القلوب).

ج. حفظ جوارحه من اقتراف الذنوب والمعاصي الظاهرة والباطنة.

وهذا التأهب والتهيؤ لعله أن يكون بإذن الله عوناً للعبد على القيام بالعبادات كما ينبغي في هذا الشهر المبارك، وأن لا يكون حاله كَحَالِ فِتْنَامٍ من الناس في أول الشهر حاضر القلب نشيط النفس والبدن، لكن مَا يَلْبَثُ أَنْ يَعْتَرِيَهُ الْفُتُورُ، وتستحكم عَلَيْهِ الشَّوَاعِلُ وَالصَّوَارِفُ، فَيَرْجِعُ إِلَى سَابِقِ أَمْرِهِ قَبْلَ رَمَضَانَ.

والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس

التوبة «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد تخلف كعب بن مالك الأنصاري عن غزوة تبوك، وكانت نفسه
تراوده باللاحق بالنبي وصحبه الكرام، ولكنه تأخر حتى عاد رسول الله
إلى المدينة.

فندم على ذلك ندمًا شديدًا، فعزم على أن يظهر توبته بين يدي رسول
الله، وأن لا يفعل كما فعل المنافقون.

فدعونا نسمع منه ما دار بينه وبين الرسول، فيما رواه البخاري
ومسلم^(١) فقال: (حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلِمْتُ تَبَسَّمْتُ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ:
"تَعَالَ"، قَالَ: فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: "مَا خَلَّفَكَ؟
أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتِغَيْتَ ظَهْرَكَ؟" فَقُلْتُ: بَلَى، إِنْى وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ
أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ سَخَطِهِ بَعْذَرًا وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِى
وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ إِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَلَيَّ، لِيُوشِكَنَّ
اللَّهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ؛ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنْى لَأَرْجُو

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذرٍ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله: "أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ"، فَقُمْتُ).

هَذَا بَدَأَ الْبَلَاءُ، وَبَدَأَتِ الْعَقَبَاتُ الْكَوُودُ الَّتِي كَادَتْ تَفْتُ فِي عَضْدِهِ، وَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَنَالَ وَسَامَ شَرِّ التَّوْبَةِ، لَكِنْ صَدَقَ تَوْبَتِهِ وَالشَّبَاتُ عَلَيْهَا بَعْدَ تَوْفِيقِ اللَّهِ كَانَتْ كَأَجَاوِدِ الْخَيْلِ الَّتِي لَا تَكْبُو، كُلَّمَا اعْتَرَضَتْهُ عَقَبَةٌ اقْتَحَمَهَا اقْتِحَامَ الْأَبْطَالِ، فَلْنَسْتَعْرِضْ هَذِهِ الْعَقَبَاتِ لِنَعْلَمَ عَظَمَ الْبَلَاءِ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ، وَلِنَعْلَمَ كَذَلِكَ عَظَمَ الْغَنِيمَةِ وَالْعَقْبَى الْحَسَنَةِ الَّتِي نَالَهَا، وَسَأَذْكَرُ الْعَقَبَاتِ بِاخْتِصَارٍ؛ خَشْيَةَ الْإِطَالَةِ:

١- جاءه رجال من بني عموته من بني سلمة يؤنبونه، فقالوا: هلا اعتذرت بما اعتذر به المخلفون، ثم يستغفر لك رسول الله، فإن استغفاره يُكَفِّرُ الله به عنك، (قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤْنِبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي).

٢- نهى رسول الله المسلمين عن كلام الثلاثة الذين خَلَفُوا، قال كعب بن مالك رضي الله عنه: (فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنْكَرْتُ لِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً).

٣- قال كعب بن مالك رضي الله عنه: (حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعَلَّمْنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؟

فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشِدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشِدْتُهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَفَاضْتُ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ).

٤- لما علم ملك الغساسنة بما حدث لكعب بن مالك كتب له كتاباً :
(فَإِذَا فِيهِ : " أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارٍ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةً فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكَ " فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا : وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا).

٥- (حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتيني، فقال: إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا ولكن اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لا مرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله هذا الأمر).

فلما اكتملت خمسون ليلة أنزل الله -جل وعلا- توبتهم قال تعالى:
﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

قال كعب : (فلما سلمت على رسول الله قال وهو يبرق وجهه من السرور: « أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ »).

إن التوبة إلى الله -جلا جلاله- من أفضل أعمال القلوب وأجلها وأعظمها والتوبة هي الحقيقة توبة القلب، ومن ثم توبة الجوارح.

والتوبة التي أمرنا بها، لا تنحصر في معنى واحد، بل تشمل عدة معانٍ؛

منها:

- أ. التوبة من المعاصي والذنوب كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا ، ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا .
- ب. التوبة من التقصير في الطاعات وعدم القيام بها كما ينبغي ، ولذا يُشرع للمؤمن الاستغفار بعد الصلوات المكتوبة ، وبعد قيام الليل في الأسحار ، وفي نهاية الحج .

يقول ابن القيم - رحمه الله - عن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

(هَذَا مِنْ أَعْظَمَ مَا يَعْرِفُ الْعَبْدُ قَدْرَ التَّوْبَةِ وَفَضْلِهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنَّهَا غَايَةُ كَمَالِ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَعْطَاهُمْ هَذَا الْكَمَالَ بَعْدَ آخِرِ الْغَزَوَاتِ ، بَعْدَ أَنْ قَضَوْا نَحْبَهُمْ ، وَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ لِلَّهِ ، وَكَانَ غَايَةُ أَمْرِهِمْ أَنْ تَابَ عَلَيْهِمْ ، وَلِهَذَا جَعَلَ النَّبِيُّ يَوْمَ تَوْبَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ خَيْرَ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْهِ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَا يَعْرِفُ هَذَا حَقَّ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ حُقُوقَهُ عَلَيْهِ ، وَعَرَفَ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ عُبودِيَّتِهِ ، وَعَرَفَ نَفْسَهُ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالَهَا ، وَأَنَّ الَّذِي قَامَ بِهِ مِنَ الْعُبودِيَّةِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى حَقِّ رَبِّهِ عَلَيْهِ كَقَطْرَةٍ فِي بَحْرٍ) ^(١).

- ج. التوبة من التقصير في شكر الله - جل وعلا - على نعمه الدينية والدينية الظاهرة والباطنة ، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

د. التوبة من التقصير في حمد الله وتسبيحه والثناء عليه بما هو أهله ، قال الرسول ﷺ: «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» ^(٢).

(١) زاد المعاد (٣/ ٧٤٤) طبعة دار عالم الفوائد.

(٢) رواه مسلم (٤٨٦).

هـ. التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى:

[التَّوْبَةُ نَوْعَانِ: وَاجِبَةٌ، وَمُسْتَحَبَّةٌ .

فَالْوَاجِبَةُ: التَّوْبَةُ مِنْ تَرْكِ مَأْمُورٍ أَوْ فِعْلٍ مَحْظُورٍ، وَهَذِهِ وَاجِبَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ .

الْمُسْتَحَبَّةُ: هِيَ التَّوْبَةُ مِنْ تَرْكِ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَفِعْلِ الْمَكْرُوهَاتِ .

فَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى التَّوْبَةِ الْأُولَى كَانَ مِنَ الْأَبْرَارِ الْمُقْتَصِدِينَ، وَمَنْ تَابَ التَّوْبَتَيْنِ كَانَ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِالْأُولَى كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ: إِمَّا الْكَافِرِينَ، وَإِمَّا الْفَاسِقِينَ^(١).

ومما يبين مكانة التوبة ومنزلتها عدة أمور؛ منها:

١ - فرح الله - جل جلاله - بتوبة عبده، وهو فرح يليق بجلاله وعظمته، بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل ولا تكييف.

والله - جل جلاله - لا يفرح إلا لأمر جليل عظيم.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: «اللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ؛ فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا؛ فَاتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^(٢).

(١) جامع الرسائل (١/ ٢٢٧) تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم.

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧)، واللفظ له.

٢- محبة الله - جل جلاله - للتائبين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّيْنِ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال ابن القيم رحمه الله: (فَلَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ اللَّهُ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ) (١).

فَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ - جل جلاله - عَبْدَهُ فَلَا تَسَلْ عَنِ الرَّحْمَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَالْبَرَكَاتِ الَّتِي تَعُمُّهُ، وَالْمَسَرَّاتِ وَالطُّمَائِنَةِ الَّتِي تَغْمُرُهُ، وَالنَّصْرُ وَالْتَّأْيِيدُ وَالْحِفْظُ الَّذِي يَكْتَنِفُهُ ..

قال الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: [فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِذَنَّهُ] (٢).

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) روضة المحبين ص (٣٧٤) طبعة دار عالم الفوائد.

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

المجلس السادس

التوبة «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
وإتماماً لما سبق في بيان مكانة التوبة ومنزلتها:
٣- أن التوبة غاية كمال المؤمن.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى:

(غَايَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ التَّوْبَةُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ لِأَفْضَلِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَفْضَلِ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَهُمْ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ومن أواخر ما أنزل قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ﴾ ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

وقد ثبت في الصحيحين أنه كان يقول في ركوعه وسجوده:
("سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي" يتأول القرآن) ^(١).

(١) رواه البخاري (٧٦١)، ومسلم (٤٨٤).

وقال أيضًا - رحمه الله تعالى - عن التوبة في موطن آخر: (بَلْ هِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْكِمَالَاتِ - إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَغَايَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ هِيَ التَّوْبَةُ) ^(١).

٤ - إِنَّ تَوْبَةَ الْعَبْدِ وَتَوْبَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ هِيَ خَيْرُ أَيَّامِ الْعَبْدِ وَأَفْضَلُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن قصة كعب بن مالك حين تاب الله عليه وعلى صاحبيه - رضي الله عن الجميع:

(وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ خَيْرَ أَيَّامِ الْعَبْدِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَفْضَلُهَا يَوْمُ تَوْبَتِهِ إِلَى اللَّهِ وَقَبُولِ اللَّهِ تَوْبَتَهُ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: "أَبَشِّرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ"، فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا الْيَوْمُ خَيْرًا مِنْ يَوْمِ إِسْلَامِهِ؟ قِيلَ: هُوَ مُكْمَلٌ لِيَوْمِ إِسْلَامِهِ وَمِنْ تَمَامِهِ، فَيَوْمُ إِسْلَامِهِ بِدَايَةِ سَعَادَتِهِ وَيَوْمُ تَوْبَتِهِ كَمَالُهَا وَتَمَامُهَا، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) ^(٢).

٥ - أن التوبة النصوح سبيل إلى الفلاح وتكفير السيئات والفوز بالجنات.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ [التحریم: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[النور: ٣١].

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٦٨٨).

(٢) زاد المعاد (٣ / ٧٣٧).

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله تعالى :

(فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ ، وَهِيَ الرُّجُوعُ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَى مَا يُحِبُّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَدَلَّ هَذَا أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّوْبَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا ، وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ بِالتَّوْبَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ أَي : لَا لِمَقْصُودٍ غَيْرِ وَجْهِهِ ، مِنْ سَلَامَةٍ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا ، أَوْ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الْفَاسِدَةِ ^(١) .

٦ - أن التوبة سبب في محو الذنوب والمعاصي التي تثقل كاهل العبد وتحجب قلبه عن الله ﷻ ، وعن اللذة والطمأنينة في طاعته وعن الفرح والسرور بقربه ؛ وتكبل قلبه وجوارحه عن المسارعة في مَرْضَاتِهِ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبُهُ " ، وهو الران الذي ذكر الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] قال الترمذي : هذا حديث صحيح ^(٢) .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - عند ذكره لبعض العقوبات التي رتبها الله - سبحانه - على الذنوب :

(وَمِنْهَا : حِجَابُ الْقَلْبِ عَنِ الرَّبِّ فِي الدُّنْيَا ، وَالْحِجَابُ الْأَكْبَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤ ، ١٥] ، فَمَنْعَتْهُمْ الذُّنُوبُ أَنْ يَقْطَعُوا

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٥٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٥٢) ، والترمذي (٣٣٣٤) ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٣٤) .

المَسَافَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، فَيَصِلُوا إِلَيْهَا ، فَيُرَوِّا مَا يُصْلِحُهَا وَيُزَكِّيُّهَا ، وَمَا يُفْسِدُهَا وَيُشْقِيهَا ؟ وَأَنْ يَقْطَعُوا الْمَسَافَةَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ ، فَتَصِلَ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ ، فَتَفُوزَ بِقُرْبِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَتَقْرُبَ بِهِ عَيْنًا ، وَتَطْيِبُ بِهِ نَفْسًا ، بَلْ كَانَتْ الذُّنُوبُ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَحِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ^(١).

وهذه الحُجُبُ التي على القلب عدة أنواع؛ منها:

١ - حُجُبُ الذُّنُوبِ الظَّاهِرَةِ.

٢ - حُجُبُ الذُّنُوبِ الْبَاطِنَةِ: كَالْكِبَرِ وَالْعَجَبِ وَالرِّيَاءِ وَالْحَسَدِ وَالْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ وَالْهَوَى وَغَيْرَهَا؛ وَهِيَ مَا يُسَمَّى بِأَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَهَذَا النُّوعُ - نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ - أَشَدَّ خَطَرًا مِمَّا قَبْلَهَا.

لأسباب؛ منها:

أ. لَخَفَائِهَا وَدَقَّتْهَا؛ فَقَدْ لَا يَشْعُرُ الْمَرْءُ بِهَا، وَمَعَ مَرُورِ الزَّمَنِ تَصْبِحُ خَلْقًا وَطَبْعًا لَهُ، فَيُزَاوِلُهَا فِي حَيَاتِهِ دُونَ تَحَرُّجٍ؛ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهَا أَخْلَاقُ جُبِلَ عَلَيْهَا، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ أَمْرَاضٌ أُصِيبَ بِهَا.

ب. أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَشْعُرُ بِهَذِهِ الْأَمْرَاضِ الْقَلْبِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَقْرَأُ بِذَلِكَ، بَلْ يَسْمِيهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا الْحَقِيقِيِّ:

❖ فَيَسْمِي الْعُجْبَ: عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ.

❖ وَالْغِيْرَةَ مِنَ الْآخَرِينَ: حَمِيَّةٌ لِلدِّينِ وَغَيْرَةٍ عَلَيْهِ.

❖ وَالْحَسَدَ: التَّنَافُسُ.

(١) الداء والدواء ص (٢٧٨) طبعة دار عالم الفوائد.

❖ والكِبَرُ: عِزَّةُ النَّفْسِ.

ج- أن أمراض القلوب هي في الحقيقة جذور في القلب للذنوب الظاهرة تمدها وتؤججها، فكلما تاب العبد من الذنب عاد إليه؛ لأن جَذَرَ الذَّنْبِ وَأَصْلَهُ ما زال موجودًا في القلب؛ ولو زال الْأَصْلُ لَزَالَ الْفَرْعُ.

فهي تشبه أعمال القلوب بالنسبة للطاعات الظاهرة.

٧- أن التوبة سبب بإذن الله في دفع البلايا والكوارث والمصائب والحروب والكروب وانتشار الأمراض والأوبئة وغلاء الأسعار وغيرها قبل وقوعها، ورفعها بعد وقوعها، سواءً على مستوى الأفراد، أو المجتمعات.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَعَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى:

(فَعِنْدَمَا جَاءُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغَاثُوا بِهِ وَتَضَرَّعُوا لَهُ وَاسْتَكَانُوا؛ وَأَخْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَّابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَسَلَّوْا اللَّهَ -تعالى- أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ، فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَكَشَفَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَأَخْرَجُوا)^(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يُضْطَرُّونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢١٩) طبعة دار مكتبة الهلال.

قال الشيخ الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى:

(وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ بِمَصَائِبِ الدُّنْيَا، مِنْ أَمْرَاضٍ أَوْ مَصَائِبٍ فِي الْأَمْوَالِ أَوْ الْجُوعِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ أَنْ يَتَضَرَّعَ إِلَى رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِيُزِيلَ عَنْهُ ذَلِكَ) ^(١).

وفي نهاية هذا الموضوع المهم تجدر الإشارة إلى شروط التوبة:

١ - ما كان في حق الله - جل وعلا:

❖ الإقلاع عن الذنب.

❖ الندم على فعله.

❖ العزم على عدم العودة إليه.

٢ - ما كان في حق الآخرين:

أَنْ يَرُدَّ الْمَظْلَمَ إِلَى أَهْلِهَا، إِنْ كَانَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ مِنْ مَالٍ أَوْ عَرْضٍ أَوْ غِيبةٍ أَوْ بهتانٍ أَوْ نَميمةٍ أَوْ غيرها.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ» ^(٢).

٣ - أن تكون التوبة في وقت المهلة؛ وذلك بأن تكون:

❖ قبل غرغرة الموت.

❖ قبل طلوع الشمس من مغربها.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (١/ ٢٥٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٩).

المجلس السابع

الإخلاص

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

(عن زُرارة بن أوفى، عن أسير بن جابر، قال: كان عُمَرُ بن الخطاب إذا أتى عليه أمدادُ اليمينِ سألهم، أفيكم أُويسُ بن عامرٍ؟ حتى أتى عليه أُويسُ، فقال: أنت أُويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مُرادٍ ثم قرن؟ قال: نعم، قال: كان بك برصٌ، فبرأت منه إلا موضعَ درهم، قال: نعم، قال: ألك والدَةٌ؟ قال: نعم، قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يَأْتِي عَلَيْكُم أُويسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ، إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفَرَ لَكَ فَأَفْعَلْ" قال: فاستغفرت لي، فاستغفر له.

فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحبُّ إليَّ.

فلما كان في العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أُويس، قال: تركته رثَّ البيتِ، قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَأْتِي عَلَيْكُم أُويسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ

عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ» فَأَتَى أُوَيْسًا فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: أَنْتَ أَحَدْتُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: لَقِيتَ عَمْرًا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَفُظِنَ لَهُ النَّاسُ فَاَنْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ»^(١).

إِنَّ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - مِنْ أَهَمِّ وَأَجَلِّ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، بَلْ يُعَدُّ عُمْدَةُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَأَسَاسُ صَلَاحِ السَّرِيرَةِ؛ حَيْثُ إِنَّ جُلَّ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ الْمَحْبُوبَةِ لِلَّهِ ﷻ تَعُودُ إِلَى صِفَةِ الْإِخْلَاصِ^(٢).

وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - لَهُ عِدَّةٌ تَعْرِيفَاتٍ؛ مِنْهَا:

(الْإِخْلَاصُ: هُوَ إِفْرَادُ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ - بِالْقَصْدِ بِالطَّاعَةِ.

وَقِيلَ الْإِخْلَاصُ: أَنْ لَا تَطْلُبَ عَلَى عَمَلِكَ شَاهِدًا إِلَّا اللَّهَ، وَلَا مَجَازِيًا سِوَاهُ)^(٣).

(وَقَالَ حُذَيْفَةُ الْمُرْعَشِي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْ تَسْتَوِيَ أَفْعَالُ الْعَبْدِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ)^(٤).

وَيَتَبَيَّنُ أَهْمِيَّةُ الْإِخْلَاصِ فِي عِدَّةِ أُمُورٍ؛ مِنْهَا:

أ. أَنَّ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَتَتَابَعَةَ النَّبِيِّ هُمَا شَرْطَا قَبُولِ الْأَعْمَالِ، فَإِذَا أَخْلَعَ الْعَبْدُ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ لَمْ يُقْبَلْ الْعَمَلُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الْمُلْكُ: ٢].

(١) صحيح مسلم (٢٥٤٢).

(٢) انظر: (يوم تبلى السرائر) للشيخ عبد العزيز الجليل ص (٦٢).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣١٣ - ٣١٥).

(٤) البيان في آداب حملة القرآن ص (١٣).

قال الفضيل بن عياض عن معن بن علقمة: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: هو أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قالوا: يا أبا علي، ما أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا؛ والخالص: أن يكون لله.

والصواب: أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ^(١).

ب. أن تفاضل أعمال العباد عند الله - جل وعلا - والثواب عليها يكون على قدر الإخلاص وتحقيقه في الأعمال.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى: (فَإِنَّ الْأَعْمَالَ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ، وَإِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونَنَّ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ^(٢).

ويقول ابن قدامة - رحمه الله تعالى: (وَقَدْ قِيلَ: رَكَعَتَانِ مِنْ عَالَمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكَعَةً مِنْ جَاهِلٍ، وَأُرِيدَ بِهِ الْعَالَمُ بِدَفَائِقِ آفَاتِ الْأَعْمَالِ حَتَّى يَخْلُصَ عَنْهَا، وَالْجَاهِلُ يَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِ الْعِبَادَةِ) ^(٣).

فركة من الأنبياء أفضل من مئات الركعات من غيرهم، وقيام ليلة منهم أفضل من قيام الليالي الكثيرة من غيرهم؛ لما في عبادة الأنبياء من كمال التعظيم والإجلال والإخلاص والخشوع ما ليس عند غيرهم ^(٤).

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣١٠).

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٢١ - ٢٢٢).

(٣) مختصر منهاج القاصدين ص (٢٩٤).

(٤) انظر يوم تبلى السرائر ص (٢٦).

ج. أن الإخلاص يُضَاعِفُ أَجْرَ الْأَعْمَالِ وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً: قَالَ تَعَالَى:
﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - عن هذه الآية: (أَيُّ عَشْرَةٍ
أَمْثَلَهَا ، إِلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ ، بِحَسَبِ حَالِهَا وَنَفْعِهَا ، وَحَالِ صَاحِبِهَا
إِخْلَاصًا وَمَحَبَّةً وَكَمَالًا)^(١).

د. أن الإخلاص يحمي القلب من داء الشهوات والشبهات، كما أنه هو
الدواء الناجح - بإذن الله تعالى - لمن ابتلي بها.

يدل على هذا المعنى قوله - تعالى - عن يوسف - عليه الصلاة والسلام:
﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾
[يوسف: ٢٤].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾

(وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بِكَسْرِ - السَّلَامِ،
وَتَأْوِيلُهَا: الَّذِينَ أَخْلَصُوا طَاعَةَ اللَّهِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بَفَتْحِ اللَّامِ، وَتَأْوِيلُهَا: الَّذِينَ
أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ لِرِسَالَتِهِ ، وَقَدْ كَانَ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ ؛
لِأَنَّهُ كَانَ مُحْلَصًا فِي طَاعَتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى ، مُسْتَخْلَصًا لِرِسَالَةِ اللَّهِ تَعَالَى)^(٢).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله تعالى:

(وَالْجَمَاعُ لِذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ اللَّهَ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ
عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِمْ ، الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ وَاخْتَارَهُمْ ، وَاخْتَصَّهُمْ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (١٧٩) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١ / ٣١٨) طبعة الرسالة العالمية.

لِنَفْسِهِ ، وَأَسَدَى عَلَيْهِمْ مِنَ النَّعَمِ ، وَصَرَفَ عَنْهُمْ مِنَ الْمَكَارِهِ ، مَا كَانُوا بِهِ مِنْ خِيَارِ خَلْقِهِ^(١) .

فمن أراد أن يحمي الله قلبه ويُدَاوِيهِ من فتن الشهوات والشبهات؛ خاصة في هذا العصر الذي ابتلينا فيه بانتشار الشهوات، وروجان سوق الشبهات، فعليه بالإخلاص لله - جل وعلا.

هـ. أن الإخلاص إذا تحقق في عمل وإن كان صغيراً أو يسيراً فإنه يكون سبباً - بإذن الله - لتكفير الكبائر، وسبباً - كذلك - لدخول الجنة.

وقد ذكر ابن تيمية - رحمه الله تعالى - حديث البغي التي سَقَتْ كَلْبًا فغفر الله لها، والرجل الذي أَمَاطَ الْأَذَى عن الطريق فغفر الله له ثم قال: (فَهَذِهِ سَقَتْ الْكَلْبَ بِإِيمَانٍ خَالِصٍ كَانَ فِي قَلْبِهَا فَعَفَرَ هَا ، وَإِلَّا فَلَيْسَ كُلُّ بَغْيٍ سَقَتْ كَلْبًا يُغْفَرُ هَا ، وَكَذَلِكَ هَذَا الَّذِي نَحْنُ غُصْنُ الشَّوْكَ عَنْ الطَّرِيقِ ، فِعْلُهُ إِذْ ذَاكَ بِإِيمَانٍ خَالِصٍ ، وَإِخْلَاصٍ قَائِمٌ بِقَلْبِهِ ، فُغْفِرَ لَهُ بِذَلِكَ ، فَإِنَّ الْأَعْمَالَ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضِلِ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ)^(٢) .

وفي مقابل هؤلاء يُؤْتَى يوم القيامة بأناس جاؤوا بأعمال كأمثال الجبال؛ فهذا عالمٌ وحافظٌ للقرآن، وآخر أنفق ماله، وآخر قُتِلَ في سبيل الله، ولكن لما خَلَّتْ أَعْمَالُهُم من الإخلاص وكانت لغير وجهه - جل وعلا، رياءً وسمعةً وجباً للظهور - كان أصحابها - نسأل الله العافية - أولَ من تُسَعَّرُ بهم النار^(٣) .

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٣٩٦) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) منهاج السنة (٦ / ٢٢١).

(٣) أصله حديث رواه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٣).

المجلس الثامن

الصدق مع الله جل جلاله

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

نظرتُ فيمن حضر بدرًا، ومَنْ قاتل في أحد، ومَنْ رابط في الخندق، ومَنْ بايع تحت الشجرة، ومَنْ شارك في فتح مكة، فلم أجد اسمي ولا أسماءكم. فأسأل الله الحي القيوم الذي لا إله إلا هو، الذي لم يكتبنا من أهل هذه المواطن العظيمة لحكمة يعلمها، أن يرْحَمَ ضَعْفَنَا وأن يُجَبِّرَ كَسْرَنَا وأن يُنْعِمَ علينا بأن يَكْتُبَنَا عنده من الصديقين؛ قولوا: آمين.

وأن يعيننا على تحقيق هذا الحديث العظيم الذي قال فيه النبي : «عَلَيْكُمْ بِالصَّدْقِ ؛ فَإِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا»^(١). وأن يعيذني وإياكم من الكذب؛ فقد قال في الحديث نفسه: «وَيَاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا».

ذلك أن منزلة الصديقية هي المنزلة التي تتلو منزلة النبوة.

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

والصدق في الحديث المذكور آنفاً يشمل الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال التي هي أعمال القلوب.

ومثل الحديث السابق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن هذه الآية:

(فَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ هُوَ مَنْ شَأْنِهِ الصِّدْقُ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ وَحَالِهِ، فَالصِّدْقُ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ :

فَالصِّدْقُ فِي الْأَقْوَالِ: اسْتِوَاءُ اللِّسَانِ عَلَى الْأَقْوَالِ وَالْمُتَابَعَةُ، كاستواء السُّنْبَلَةِ عَلَى سَاقِهَا.

وَالصِّدْقُ فِي الْأَعْمَالِ: اسْتِوَاءُ الْأَفْعَالِ عَلَى الْأُمُورِ وَالْمُتَابَعَةُ، كاستواء الرَّأْسِ عَلَى الْجَسَدِ .

وَالصِّدْقُ فِي الْأَحْوَالِ: اسْتِوَاءُ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَاسْتِفْرَاجِ الْوُسْعِ وَبَذْلِ الطَّاقَةِ .

فَبِذَلِكَ يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالصِّدْقِ .

وَبِحَسَبِ كَمَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ فِيهِ وَقِيَامُهَا بِهِ تَكُونُ صِدِّيقِيَّتُهُ .

وَلِذَلِكَ كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ذُرْوَةٌ سَنَامٍ الصَّدِيقِيَّةِ حَتَّى سُمِّيَ "الصديق" عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَالصِّدِّيقُ أَبْلَغُ مِنَ الصَّدُوقِ، وَالصَّدُوقُ أَبْلَغُ مِنَ الصَّادِقِ.

فَأَعْلَى مَرَاتِبِ الصَّدَقِ : مَرْتَبَةُ الصَّدِيقَةِ ؛ وَهِيَ كَمَالُ الْإِنْقِيَادِ لِلرَّسُولِ
مَعَ كَمَالِ الْإِخْلَاصِ لِلْمُرْسِلِ ^(١).

والصدق مع الله من أَجَلِّ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وهو رُوحُ الْأَعْمَالِ، وَمَحَكُّ
الْأَحْوَالِ، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيثار.

وما صَدَقَ أَحَدُ اللَّهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ إِلَّا صَدَقَهُ اللَّهُ، فما يزال
يمده بنعمه وألطافه ويزيده إحساناً وتوفيقاً، وله مزية المعية مع الله، فإن الله
مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه؛ إذ دَرَجَتُهُمْ مِنْهُ ثَانِي دَرَجَةِ النَّبِيِّينَ ^(٢).

وسأضرب أربعة أمثلة؛ كُلُّ مِثَالَيْنِ مُتَشَابِهَيْنِ، ولكنَّ بَيْنَ مَنْزِلَةِ
الْمُتَشَابِهَيْنِ عِنْدَ اللَّهِ بَوْنًا شَاسِعًا؛ حَيْثُ إِنْ أَحَدَهُمَا مِنْ أَوْلَى الْعِزْمِ مِنَ
الرَّسْلِ، وَالْآخَرُ إِمَّا صَحَابِيٌّ أَوْ تَابِعِيٌّ، لَكِنْ جَمَعَهُمُ الصَّدَقُ مَعَ اللَّهِ.

المثالين الأولين المتشابهان:

١- لما كَسَّرَ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الْأَصْنَامَ،
أَرَادَ قَوْمُهُ أَنْ يَنْصُرُوا آلِهَتَهُمْ بِأَنْ يَحْرِقُوهُ فِي النَّارِ، فَأَضْرَمُوا لَهُ نَارًا
عَظِيمَةً، وَرَبَطُوهُ وَوَضَعُوهُ فِي الْمَنْجَنِيْقِ، وَلَمَّا رَمَوْهُ بِهَا لِيَقَعَ فِي النَّارِ،
قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، حِينَهَا قَالَ
اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

صَدَقَ اللَّهُ فِي دَعَائِهِ وَتَوَكُّلِهِ وَلَجُودِهِ إِلَيْهِ، فَصَدَقَهُ اللَّهُ بِالْإِجَابَةِ حَيْثُ
كَفَاهُ وَحَفَظَهُ وَتَوَلَّى أَمْرَهُ، فَنَعِمَ الْمَوْلَى وَنَعِمَ النَّصِيرُ.

(١) مدارج السالكين (٣/ ٧ - ٨).

(٢) انظر المصدر السابق (٦/٣) بتصرف يسير.

قال ابن عباس رضي الله عنهما :

("حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" قالها إبراهيم - عليه السلام - حين أُلْقِيَ في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ^(١) [آل عمران: ١٧٣].

٢- لما ادعى النبوة الأسود العنسي في اليمن دعا أبا مسلم الخولاني إلى أن يشهد أنه رسول الله، فقال: أتشهد أني رسول الله؟ فقال أبو مسلم الخولاني: لا أسمع، أشهد أن محمداً رسول الله، فأَجَجَ له ناراً، وألقاه فيها، فلم تَضُرَّهُ، وأنجاه الله من النار، فكان يُشَبَّه بإبراهيم الخليل، ثم هاجر فوجد رسول الله قد مات، فقدم على الصديق، فأجلسه بينه وبين عمر، وقال له عمر: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أمة محمد من فَعِلَ به كما فَعِلَ بإبراهيم الخليل، وقَبَلَه بين عينيه ^(٢).

المثالان الآخران المتشابهان:

١- لما خرج موسى - عليه الصلاة والسلام - بقومه من مِصْرَ، وتبعه فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال موسى - عليه الصلاة والسلام - بقلب قد ملأه صدق التوكل على الله، وصدق اليقين بنصر الله، قال ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، حينها أمره الله ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) انظر: (البداية والنهاية) لابن كثير (٤٦٦/١١) طبعة دار هجر.

صدق الله موسى - عليه السلام - في توكله، ويقينه، وحسن ظنه بربه فصدق الله بأن أنجاه وقومه من الكرب العظيم.

٢- لما غزا العلاء بن الحضرمي دارين^(١) وقف هو وجيشه أمام البحر، وقد حال بينهم وبين عدوهم الماء، ولم يجدوا سفناً تحملهم.

قال سهم بن منجاب: (ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا دَارَيْنَ وَالْبَحْرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ يَا حَلِيمُ، يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ، إِنَّا عَيْدُكَ، وَفِي سَبِيلِكَ، نُقَاتِلُ عَدُوَّكَ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ لَنَا إِلَيْهِمْ سَبِيلًا فَدَخَلْنَا الْبَحْرَ فَلَمْ يَلْغُ الْمَاءُ لُبُودَنَا)^(٢).

ومشينا على متن الماء ولم يتل منا شيء^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (مَا صَدَقَ اللَّهُ عَبْدٌ إِلَّا صُنِعَ لَهُ)^(٤).

فما صدق أحدٌ الله في عبادته إلا وصله بنعمه وقربه.

وما صدق أحدٌ الله في دعائه إلا أعطاه ما أمّله.

وما صدق أحدٌ الله في توبته إلا أقال أقال عثرته وقبله.

وما صدق أحدٌ الله في التجائه إلا فرّج كربته ونصره.

وما صدق أحدٌ الله في نيته إلا أجزل له المثوبة وإن لم يستطع أن يفعلَه.

فالحمد لله رب العالمين، هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

(١) دارين: جزيرة تقع على ضفاف الخليج العربي.

(٢) اللبود: جمع لبد، وهو ما يوضع تحت السرج، الوسيط (ل ب د).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٩ / ٣١١) طبعة دار هجر.

(٤) مجموع الفتاوى (٣٠٩ / ٢٢).

قد يقول قائل: ما الفرق بين الإخلاص والصدق مع الله؟
لا شك أن هناك تقارباً بين الإخلاص والصدق، ولكن ثَمَّت فروقٌ
منها:

١- أن الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وتابع له، بمعنى أن
المؤمن إذا صدق الله أخلص في عمله.

٢- أن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، أما الصدق
فيكون قبل الدخول فيه^(١).

٣- أن الإخلاص يقابل الكفر والشرك قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وأما الصدق فيقابل
النفاق قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) انظر التعريفات للجرحاني ص (٢٨).

المجلس التاسع

حسن الظن بالله جل جلاله «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد قام رسول الله بأعباء الدعوة إلى الله مدة ثلاث وعشرين سنة.

وقد حدث له فيها من البلاء والشدة ما الله به عليم.

ومن ذلك أذى قومه وتكذيبهم له، وتعذيب أصحابه، وموت عمه أبي طالب وزوجته أم المؤمنين خديجة عليها السلام حتى سُميَ ذاك العام (عام الحزن)؛ وما حدث في غزوة أحد والخندق وحادثة الإفك وغيرها.

ورغم هذه المواقف الشديدة المؤلمة إلا أني سأذكر موقفًا واحدًا، هو أشد موقف مرَّ على النبي خلال مسيرة دعوته المباركة.

وسندعُ أمنا عائشة تروي لنا هذا الحدث العظيم؛ حيث إنها وجهت هذا السؤال لرسول الله، فقالت: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟) قال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ^(١)؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى

(١) يوم العقبة قيل: المراد جمة العقبة التي بمعنى، وقيل: مكان مخصوص بالطائف، ولعله الصواب؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي».

أَبْنِ عَبْدٍ يَالَيْلَ بْنَ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ»^(١).

لنتأمل هذه الجملة الأخيرة: (فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب) هذه الجملة توحى لك بعظم البلاء الذي نزل عليه -بأبي هو وأمي- وكان الهمّ تملّكه، وأشغله عما حوله فلم يستفق منه إلا بقرن الثعالب وهو ما يسمى اليوم "السيل الكبير".

رغم أنه أعظم الناس صبراً واحتساباً، وأربطهم قلباً وجأشاً وأشدّهم قوةً وبأساً.

فلماذا كان يومُ العقبة أشدَّ يومٍ مرَّ عليه ؟!

لقد اجتمعت على رسول الله عدة أمور؛ منها:

١- رَدُّ دَعْوَتِهِ ، وعدم الإيثار به، وهذا الأمر شاقٌّ على نفسه الزكية قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

٢- الأمر الثاني يحتاج إلى شيء من التأمل والتفكير:

لقد جعل الله مكة حرماً آمناً فيه الوحوش، ويرى الرجل قَاتِلَ أَبِيهِ وَلَا يَهِيْجُهُ أَوْ يَنَالُ مِنْهُ؛ تعظيماً لحرمة هذا البيت، لكن كفار قريش حوّلوا بطاح هذا الحرم الآمن وشعابه إلى ساحات لتعذيب الصحابة والتنكيل بهم لمدة عشر سنين، فلم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة.

حينها علم الرسول أن مكة ليست (أرض دعوة) فلا بد أن يبحث عن أرضٍ تحتضن دعوته، وتؤوي أصحابه.

(١) رواه البخاري (٣٢٣)، ومسلم (١٧٩٥).

فلما أراد الخروج للطائف لعله يجد فيها بُغْيَتَهُ، علم أصحابه بذلك فاشْرَأَبَتْ قلوبهم لأرض يعبدون الله فيها لا يشركون به شيئاً، ولا ينالهم فيها عذابٌ ولا نصبٌ.

لكن هذه الآمال ما لبثت أن تبددت كسرابٍ بقية على صيحات الكفر من سادات أهل الطائف ردّاً لدعوته، وعلى رمي سفهائها وعبيدها الحجارة على رسول الله حتى أدموا عقبه الشريفين.

فرجع إلى مكة يحمل همّ دعوته؛ من ينصرها، وهم أصحابه؛ من يؤويهم ويحميهم.

في هذا الموقف الشديد جاءه جبريل - عليه السلام - بالفرج العاجل والنصر المبين.

قال : (... فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِيَيْنِ^(١).

الله أكبر في لحظة واحدة ينتهي جبروت كفار قريش وعنادهم؛ لو أذن النبي أن يطبق عليهم الأخشيين.

(١) الأخشيان: هما جبلان بمكة، أبو قُبَيْس والذي يقابله وهو قُبَيْعَان.

ولكن النبي الكريم الذي يحسن الظن بربه، لم يدخل اليأس ولا القنوط إلى قلبه، ولم يقطع الأمل في هداية قومه.

فها هو ذا يضرب لنا أروع الأمثلة في حسن الظن بالله في أشد موقف مرّ عليه في مسيرة دعوته كلها.

ها هو يقول : (بَلْ أَرِجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) ^(١).

ولله الحمد كان الله عند ظن نبيه به، فبعد عدة سنوات يكبر النبي للصلاة ويكبر خلفه عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وعتبة ومعتب ابني أبي لهب وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وأبو سفيان وابنيه يزيد ومعاوية وغيرهم كثير ممن كان آباؤهم أئمة الكفر، وأصبح أبناؤهم أئمة في الإسلام.

فتح الله بهم قلوب العباد والبلاد.

فكان هؤلاء ومن آمن بدعوتهم، ومن أتى بعدهم إلى يوم القيامة، كلهم في صحيفة رسول الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والله -جل وعلا- أكرم وأجل، فلما أحسن النبي الظن بربه، أعطاه أعظم مما أمله ورجاه.

فلما أغلقت كفار قريش وكفار أهل الطائف قلوبهم عن دعوته ، فتح الله قلوباً أخرى ما كان يعلمها، ألا وهي قلوب الجن؛ إذ صلى النبي في وادي نخلة، فصرف الله إليه نفراً من الجن فاستمعوا لقراءته فآمنوا به.

(١) رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، واللفظ لمسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

والله -جل وعلا- أكرم وأجل ولما أغلقت قريش أبواب مكة أمام الرسول فلم يدخلها إلا في جوار المطعم بن عدي، فتح الله -جل ثناؤه- له أبواب السموات فخرج إلى السماء السابعة وما فوقها ورأى من آيات ربه الكبرى.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس العاشر

حسن الظن بالله جل جلاله «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإحسانُ الظنِّ بالله من أجلِّ أعمالِ القلوبِ، وأعظمِها؛ حيث إن هذه
العبادة القلبية أخذت عظمتها من عظمة منشئها، فهي تنشأ في قلب المؤمن
من العلم بالله - جل وعلا - وأسمائه وصفاته وأفعاله.
فكلما ازداد المؤمن من هذا العلم؛ كلما ازداد حُسْنُ ظنِّه بربه - جل
وعلا - وكلما قلَّ حظُّه من هذا العلم، كلما ضَعُفَ حُسْنُ ظنِّه بربه حتى
يصل إلى القنوط من رحمة الله واليأس من روحه - جل وعلا - بل قد يصل
عياداً بالله إلى سوء الظن بالله.

يقول ابن القيم - رحمه الله - عن قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السُّوءُ﴾ [الفتح: ٦].
(وإنما كان هذا ظنُّ السُّوءِ، وظنُّ الجاهليَّة المنسوبُ إلى أهل الجهل،
وظنُّ غيرِ الحقِّ؛ لأنَّه ظنُّ غيرِ ما يليقُ بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلىا وذاتِهِ
المُبرَّاة من كُلِّ عيبٍ وسوء، خِلافُ ما يليقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَتَقَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ
وَالِإِلَهِيَّةِ - إلى إن قالَ رَحِمَهُ اللهُ: وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنًّا
السُّوءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلُمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ

عَرَفَ اللَّهُ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَمُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ ، فَمَنْ قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيَّسَ مِنْ رَوْحِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السُّوءِ^(١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)^(٢) .

وقال العزُّ بن عبد السلام - رحمه الله تعالى: (الْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُوَ اسْتِصْغَارُ لِسَعَةِ رَحْمَتِهِ عِزِّ وَجَلِّ وَمَغْفِرَتِهِ ، وَذَلِكَ ذَنْبٌ عَظِيمٌ ، وَتَضْيِيقٌ لِفُضَاءِ رَحْمَتِهِ)^(٣) .

فالقنوطُ من رحمة الله من صفات الضالين ، قال تعالى: ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦] .

والْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ من صفات القوم الكافرين ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧] .

وسوءُ الظنِّ بالله من صفات المنافقين والمشركين ، قال تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا بِالسُّوءِ ﴾ [الفتح: ٦] .

والمؤمنُ براءٌ من هذا كله؛ بل هو مُحْسِنُ الظنِّ بالله مهما اشتدت الكروب، وطال البلاءُ.

كيف لا يُحْسِنُ الظنَّ وربّه - جل وعلا - يُذَكِّرُهُ في كل يوم أكثر من سبع عشرة مرة أنه ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ، حيث يقرأ سورة الفاتحة في كل ركعة من الصلوات المفروضة والنافلة؛ فكلما أراد اليأس أن يدخل قلبه أو

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧) طبعة دار عالم الفوائد.

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه رقم (١٩٧٠١).

(٣) شجرة المعارف والأحوال ص (١٢٠).

يَتَمَلَّكُهُ الْقَنُوطُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَانْجَلَتْ عَنْ قَلْبِهِ تِلْكَ الْأَوْهَامَ وَتِلْكَ الْغَيُومَ.

كيف لا يُحَسِّنُ الْمُؤْمِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ - جل وعلا - وهو يعلم أن رحمة الله وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

قال - تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويعلم كذلك أنه - جل وعلا - ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ويعلم أيضًا بقوله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» ^(١).

كيف لا يحسن المؤمن الظن بربه - جل جلاله - وهو يعلم أن علم الله وسع كل شيء، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. فلا يغيب عنه - جل وعلا - مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. فهو - جل شأنه - يعلم بصدق توبة التائبين فيقبلها: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

ويعلم بكروب المضطرين فيكشفها: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

ويعلم بدعوات المحتاجين فيجيبها: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويعلم بدعوات المظلومين فينصرها؛ ففي الحديث القدسي: (وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ) ^(٢).

(١) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧١٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٩٨)، انظر: صحيح الجامع للألباني (١١٧).

كيف لا يُحَسِّنُ المؤمنُ الظنَّ بربه وهو يعلمُ أَنَّ اللهَ -جل وعلا- مشيئته نافذةٌ، وقدرتهُ غالبَةٌ، وأنه لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وأنه -جل وعلا- إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: "كن" فيكون.

فكما أن البلاء يقع لحظةً، فإن زواله بقدره الله في لحظةٍ.

كيف لا يحسن المؤمن الظن بربه وهو يعلم بالحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)^(١).

فالله -جل وعلا- لك أيها العبدُ كما أنت لله.

فأبشر بخيرٍ، وكن مع الله يكن الله معك.

والمؤمن يعلم من معاني أسماء الله وصفاته وأفعاله أضعاف أضعاف ما ذكرت؛ مما يقوي حسن ظنه بربه.

وما ذكرت إنما هو غيض من فيض، وقبس من نور، وقطرة من بحار معاني أسماء الله وصفاته وأفعاله.

وحسن الظن بالله -جل وعلا- له ثمرات عظيمة؛ منها:

١- إجابة الدعوات، وكشف الكربات، وإقالة العثرات وقبول التوبات والإثابة على الحسنات.

٢- قوة التوكل على الله، والعزيمة والإقدام، والفأل والأمل الحسن.

٣- الثبات والطمأنينة والسكينة والرضا والسعادة في قلب المؤمن.

٤- تنفي عن القلب القنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْحه وسوء الظن به -جل شأنه.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

المجلس الحادي عشر الخشوع في الصلاة «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

عن عبد الله بن الشَّخِير قال: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمَرْجُلِ مِنَ الْبُكَاءِ) ^(١).

وعن عائشة قالت: لما اشْتَدَّ برسول الله وَجَعُهُ قِيلَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: "مُرُّوا أَبَا بَكْرٍ فليُصَلِّ بِالنَّاسِ"، قالت عائشة: إن أبا بكر رجلٌ رقيقٌ، إِذَا قرأ غَلَبَهُ الْبُكَاءُ ^(٢).

وعن علقمة بن أبي وقاص قال: (كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقْرَأُ فِي الْعِشَاءِ الْآخِرَةَ سُورَةَ يُوسُفَ، قَالَ: وَأَنَا فِي مُؤَخَّرَةِ الصَّفِّ، حَتَّى إِذَا ذَكَرَ يُوسُفَ سَمِعْتُ نَشِيْجَهُ، وَأَنَا فِي مُؤَخَّرَةِ الصُّفُوفِ) ^(٣).

وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قُلْتُ لِحَدَّثِي أَسْمَاءَ: كَيْفَ كَانَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ، قَالَتْ: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ كَمَا نَعَتَهُمُ اللَّهُ ^(٤).

(١) رواه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٣/٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

(٢) رواه البخاري (٦٨٢).

(٣) مصنف عبد الرزاق (٢٧٠٣).

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٣٦٥/٢).

هكذا خشع رسولُ الله ، وهكذا خَشَعَ أصحابُه الكرامُ وعلى مثل هذا سار على طريقهم التابعون لهم بإحسان.

والخشوع في الصلاة من أعمال القلوب، له المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة.

ويتبين أهمية الخشوع في الصلاة في عدة معانٍ منها:

١ - أن الخشوع في الصلاة سبيلٌ للفلاح في الآخرة؛ وذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

[المؤمنون: ١-٢]

٢ - أن الخشوع في الصلاة سببٌ لتكفير السيئات.

قال عليه السلام: « مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ ، فَيُحْسِنُ وَضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا ، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً ، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ »^(١).

٣ - أن الخشوع في الصلاة سبيلٌ للثبات عند نزول المصائب والفتن.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

(١) رواه مسلم (٢٢٨).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٣ - ١٥٥].

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور - رحمه الله تعالى: (جعل قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ الآية.

بين هذين المتعاطفين قوله تعالى: ﴿وَلَا تُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾؛ ليكون نصيحة لعلاج الأمرين:

١ - تمام النعمة والهدي، ٢ - والابتلاء^(١).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (استيقظ النبي ذات ليلة، فقال: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ فِي الْآخِرَةِ) وفي رواية للبخاري: (حَتَّى يُصَلِّيْنَ)^(٢).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى)^(٣).

٤ - بقدر خشوع العبد في صلاته وعقله لها يكون أجره منها.

قال عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ تُسْعُهَا، ثُمْنُهَا، سُبْعُهَا، سُدُسُهَا، خُمْسُهَا، رُبْعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»^(٤).

٥ - بقدر خشوع العبد في صلاته يجد اللذة والأنس والانشراح والطمأنينة والراحة فيها.

(١) تفسير التحرير والتنوير (٥٤/٢) بتصرف يسير.

(٢) رواه البخاري (١١٥).

(٣) رواه أبو داود (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣١٩).

(٤) رواه أبو داود (٧٩٦٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٧١٤).

قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال ﷺ: (يا بلال، أرخنا بالصلاة)^(١).

وقال ﷺ: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)^(٢).

٦- بقدر خشوع العبد في صلاته يكون أثرها وثمرتها في نفيه عن الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤].

فكم من مصلٍّ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لأنه لم يؤدّها بخشوعٍ وخضوعٍ وتذللٍ كما ينبغي.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥ - ٤٩٨٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤١٧١ - ٤١٧٢).

(٢) رواه النسائي (٣٩٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٩٥٠).

المجلس الثاني عشر

الخشوع في الصلاة «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

والخشوع: هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والإقبال
عليه بكلية.

فإن الخشوع روح الصلاة وحياتها، وصلاة بلا خشوع كبدن بلا روح،
فالمؤمن عندما يقف أمام ربه مستحضراً عظمتَه وأنه -جل وعلا- قُبالة
وجهه؛ يسمع قراءته وتسبيحه ودعائه وتضرُّعه، فيخضعُ لذلك قلبه
وينكسر فؤاده؛ محبةً وهيبةً وإجلالاً، حينها تعرج روحه إلى الملكوت
الأعلى، فيقرب من ربه، ويقرب منه ربه كما قال تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾
[العلق: ١٩]، وكما قال ﷺ: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ)^(١)،
ويكونُ هذا العروجُ وهذا القربُ على قدر خشوعه، فينال بذلك صلة
الرحمن، وفيض المنان وحلاوة الإيمان، فيدخل منها لأبواب الجنان، جنات
الدنيا قبل جنات الآخرة، وهي الأنس بالله وقربه، ولذة مناجاته، والخلو

(١) رواه مسلم (٤٨٢).

به - جل وعلا - فيقوى بذلك قلبه، وتستريح نفسه من شعث الدنيا وغبارها وغصصها وكبدها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى: (فالداعي والسَّاجِد يُوجِّهُ رُوحَهُ إِلَى اللَّهِ، وَالرُّوحُ لَهَا عَرُوجٌ يُنَاسِبُهَا، فَتَقْرُبُ مِنَ اللَّهِ بِلَا رَيْبٍ بِحَسَبِ تَخَلُّصِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ، فَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا قَرِيبًا قُرْبًا يُلْزَمُ مِنْ قُرْبِهَا) ^(١).

ويقول - رحمه الله - في موضع آخر: (إِنَّ رَوْحَ الْمُصَلِّي تَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ فِي السُّجُودِ، وَإِنْ كَانَ بَدَنُهُ مُتَوَاضِعًا؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ) ^(٢).

ولعل هذا - والله أعلم - مما يبين لنا سرًّا من الأسرار في فرض الصلاة على النبي ليلة الإسراء والمعراج دون غيرها من العبادات؛ حيث كَلَّمَهُ رَبُّهُ بِلا واسطةٍ ولا ترجمانٍ، وفُرضَ عليه وعلى أمته خمس صلوات متفرقة في اليوم والليلة؛ ليبقى قلبُ العبد متصلاً به عارِجاً إليه خمس مرات، بل أكثر من ذلك لمن حافظ على سنن الرواتب والنوافل، لا يمنعه من ربه شيء، وليس بينه وبين ربه واسطة ولا ترجمان؛ ينطرح بين يدي ربه كلما عناه أمر أو اشتد به كرب.

فلله الحمد على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة، وإن الصلاة لمن أعظمها وأجلها.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مجموع الفتاوى (٢٤١/٥).

(٢) المصدر السابق (٧/٦).

المجلس الثالث عشر عظمة القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

دخل رسول الله المسجد الحرام، وفيه جمع كبير من قريش فيهم ساداتهم وكبرائهم، فقام فيهم، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم، فاجتمع في تلاوته أمران: عظمة كلام الله - جل وعلا - بصوت رسول الله .

فكان أروع كلام سمعوه قط، أخذ مشاعرهم، ونسوا ما كانوا فيه من الكفر والعناد والشقاق، فما من أحد إلا وهو مصغ إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا خواتيم هذه السورة، وفيها قوارع تطير لها القلوب:

﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتُضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۝﴾ [النجم: ٥٩ - ٦٢].

ثم سجد رسول الله ، حينها لم يتمالكوا أنفسهم حتى خروا سجداً، وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا إلا أن يخروا لله ساجدين^(١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أَنَّ الرَّسُولَ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ)^(٢).

(١) انظر الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص (١١٦).

(٢) رواه البخاري (١٠٧١).

وبعد هذه القصة الشَّيْقَة سأُتحدّثُ عن أمرٍ عظيمٍ؛ ولكي نَتَصوّرَ عظمته وعلوّ شأنه، لا بد أن أقدم له بعدة مقدمات:

المقدمة الأولى:

إن كلّ أمةٍ من الأمم، وكلّ حضارةٍ من الحضارات لها أدبها الذي تتمدّح وتباهى به أمام غيرها من الأمم.

فهي تَسْبِكُ أدبها كما تَسْبِكُ قوالبَ الذهب، وتنسجُه كما تُنسجُ الديباجة من خيوط الحرير؛ وتنظمه نظماً كما تنظم حبات اللؤلؤ.

ولكن ما إن تمر بالأدب العربي من معلقات وشعر ونثر وخطب حتى يتملكك العجب من نظمه ونسجه وسبكه؛ الذي بدوره فاق غيره من اللغات والآداب.

ولقد اهتمت العرب بلغتها وأدبها اهتماماً بالغاً حتى عقدت لها أسواقاً تحكّم فيها الشعر والخطب.

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور - رحمه الله تعالى - عن اللغة العربية: (إنّ تلك اللغة أوفر اللغات مادّةً، وأقلّها حروفاً، وأفصحها لهجّةً، وأكثرها تصريحاً في الدلالة على أغراض المتكلّم، وأوفرها ألفاظاً) (١).

ولكن عجبك لا يكاد يُوصَفُ عندما تنظرُ إلى كلام الله - جل وعلا.

فلا مقارنةً بين عظمة أدبهم أمام عظمة كلام الله - جل وعلا؛ إلا كما يقارن كلام العبد الفقير الضعيف أمام كلام الله الكبير المتعال.

(١) تفسير التحرير والتنوير (٩٨/١).

المقدمة الثانية:

إن كلام الله - جل جلاله - عظيم، ولا حَدَّ لعظمته؛ لأنه صفةٌ من صفاته.

والله - جل وعلا - أنزل كُتُبًا على رسله، فكانت هذه الكتبُ في أعلى وأرقى أسلوب، وأفخم تركيب، وأعذب عبارات في اللغة التي نزل بها ذلك الكتاب، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وغيرها، ثم يأتي القرآن الكريم ليُهَيِّمَ على الجميع.

﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

المقدمة الثالثة:

إن هذا القرآن العظيم الذي قال عنه أصدق القائلين جل جلاله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ ٦٧ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨]، بلغ من العظمة ما تصاغت أمامه أرباب اللسان وأساطير اللغة، فلم يستطيعوا أن يأتوا ولو بسورة من مثله.

ولما سمع الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: (وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَأَنَّ عَلَيْهِ لَطُلَاوَةً^(١))، وَإِنْ أَسْفَلِهِ لُمُغْدَقٌ وَإِنْ أَعْلَاهُ لِمُثْمَرٌ، وَمَا هُوَ بِكَلَامِ بَشَرٍ)، وذكر أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. فسجد، وقال: سجدت لفصاحته، وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة "فاصدع" في إبانيتها عن الدعوة، والجهد بها، والشجاعة فيها، وكلمة "بما تؤمر" في إيجازها

(١) طلاوة: أي رونقاً وحسناً، وقد تفتح الطاء (النهاية في غريب الحديث) لابن الأثير.

وجمعها، وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام^(١).

قال تعالى: ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

المقدمة الرابعة:

إن هذا القرآن العظيم الذي احتوى على مئة وأربع عشرة سورة تقدّمه سورة واحدة هي سورة الفاتحة التي فحّم الله قدرها وأعلى شأنها بقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

وعن أبي سعيد بن المعلّى رحمته الله قال: (مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِه حتّى صليتُ ثمّ أتيتُ، فقال: « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ » فقلت: كنتُ أصلي، فقال: « أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ » [الأنفال: ٢٤]، ثم قال: « أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ »، فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته، فقال: « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ »^(٢).

الله أكبر عظمت بعضها مع بعض.

فأين نحن من استشعار عظمة القرآن حين نتلوّه أو نستمع له؟!

(١) تفسير التحرير والتنوير (١/ ١٠٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٣).

وأين نحن من عظمة سورة الفاتحة؟! التي أمرنا أن نقرأها في كل ركعة من ركعات صلاتنا؛ بل وجعلت قراءتها ركناً من أركان الصلاة التي من تركها ناسياً أو عامداً بطلت صلاته.

فنحن نقرأها في اليوم أكثر من سبع عشرة مرة، مما يدل على أنها غذاء لقلب المؤمن لا غنى له عنه ألبتة.

فحريٌّ بسورة هذا شأنها وعظمتها أن يتعلم المؤمن تفسيرها ويتدبر معانيها ويتأمل أسرارها، ويرتع في ربيعها، ويعمل بمقتضاها.

فإن هذه الأمور هي من دواعي خشوعه في صلاته واستشعاره لذة مناجاته لربه، والقرب منه.

وصدق عثمان بن عفان إذ يقول:

(لَوْ طَهَّرْتُ قُلُوبَكُمْ مَا شَبِعْتُمْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ ﷻ)^(١).

اللهم طهر قلوبنا واجعل القرآن ربيع قلوبنا وجلاء أحزاننا ونور صدورنا، وذهاب همومنا وغمومنا، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٦٨٦).

المجلس الرابع عشر

تفسير سورة الفاتحة وتدبرها «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن طلوع الشمس وحركتها في السماء، ومن ثم غروبها، وحركة القمر وبزوغه هلالاً ثم بدرًا ومن ثم يعود كالعرجون القديم، وغيرها من الآيات العظام في هذا الكون وفي أنفسنا؛ تتلاشى عظمتها في قلوب كثير من المسلمين بطابع الإلف والاعتیاد.

فهذه الحوادث الكونية والآيات الربانية في أنفسنا، ومن حولنا تحدث كل يوم؛ لذا لا نشعر بعظمتها؛ لأننا ألفناها، واعتدنا عليها.

ولكن عندما تغيب الشمس مثلاً أسبوعاً أو أياماً بسبب الأمطار أو الغيوم أو الكسوف يفرح الناس عند طلوعها، ويقدرّون عظيم صنع الله فيها.

وهذه المقدمة بين يدي تفسير سورة الفاتحة هي نفسها تنطبق على استشعارنا بعظمة هذه السورة الكريمة.

ولما كانت سورة الفاتحة مما نقرؤه ونسمعه في اليوم عدة مرات؛ أصبح كثيرٌ منا لا يجد لذتها ولا الأنس بتلاوتها خاصة في صلاة التراويح؛ لتكرارها في كل ركعة، فالله المستعان وعليه التكلان.

أخي المصلي، لكي نتعرف على شيء من عظمة هذه السورة المباركة لتأمل هذه المناجاة بين العبد الفقير، وربّه الغني المتعال في هذا الحديث القدسي العظيم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: [الحمد لله ربّ العالمين]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مُحَمَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: [الرحمن الرحيم]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَتْنِي عَلَى عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: [مالك يوم الدين]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مُحَمَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ]، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: [اهدنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ]، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ^(١).

فوالله ما استشعر عبْدُ هذه المناجاة حقًا وصدقًا إلا ملئ قلبه خشوعًا وخضوعًا وتضرعًا وإخباتًا وافتقارًا؛ وكذلك ملئ لذة وفرحًا وأنسا وطمأنينة؛ بقدر استشعاره وصدق مناجاته.

فيا لها من مناجاة لو عقلناها!

ولنبداً جميعاً مستعينين بالله في تفسير سورة الفاتحة:

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾

[أي: أبتدئ بكل اسم لله - تعالى - لَأَنَّ لَفْظَ "اسم" مُفْرَدٌ مُضَافٌ فَيَعْمُ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى] ^(٢).

والمعنى: أبتدئ قراءتي مستعيناً ومتبركاً باسم الله.

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٣٩) طبعة مؤسسة الرسالة.

و﴿اللَّهُ﴾: اسم الله رب العالمين لا يُسمَّى به غيره؛ وهو أصلُ الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماءُ تابعةً له.

و﴿الرَّحْمَنُ﴾: أي ذو الرحمة الواسعة، ولهذا جاء على وزن (فَعْلان) الذي يدل على السعة.

و﴿الرَّحِيمُ﴾ أي الموصلُ للرحمة مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ؛ ولهذا جاءت على وزن "فَعِيل" الدال على وقوع الفعل.

فهنا رحمةٌ هي صفته هذه دلَّ عليها ﴿الرَّحْمَنُ﴾، ورحمةٌ هي فعله أي إيصال الرحمة إلى المرحوم دلَّ عليها ﴿الرَّحِيمُ﴾.

و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان:

١- على الذات. ٢- وعلى صفة الرحمة. ٣- وعلى الأثر: أي الحكم الذي تقتضيه هذه الصفة.

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ﴿الْحَمْدُ﴾ وَصْفُ المَحْمُودِ بالكمال مع المحبة، والتعظيم؛ الكمال الذاتي، ولا بد من قيد وهو "المحبة، والتعظيم"؛ قال أهل العلم: "لأنَّ مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يُسمَّى حمداً؛ وإنما يُسمَّى مدحاً^(١)."

قد يقول قائل: ما السرُّ الإبداعي في الإتيان بلفظ "الحمد" دون لفظ "الشكر"؟

الجواب: أن الحمدَ أعمُّ من الشكر، فالحمد يكون نوعين:

١ - نَحْمُدُ اللهَ لما له من الكمال والجلال في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(١) تفسير القرآن الكريم (الفاخرة - البقرة) (١/ ٥-٩) باختصار/ للشيخ محمد بن عثيمين.

٢- نَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى مَا أَسَدَى عَلَيْنَا مِنْ نِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

ويكون الحمدُ بالقلب واللسان.

وأما الشكرُ فلا يكونُ إلا على النعم فحسب، ويكون بالقلب واللسان والجوارح.

لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ^(١).

و"ال" في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾: اللام للاختصاص، والاستحقاق؛ و"الله" اسم ربنا ﷻ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه أي المعبود حبًّا، وتعظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ "الرب": هو مَنْ اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، الملك، التدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور؛ و﴿الْعَالَمِينَ﴾: قال العلماء: كل ما سوى الله فهو من العالم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلِمُوا على خالقهم - سبحانه وتعالى - ففي كل شيء من المخلوقات آيةٌ تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته ^(٢).

(الرب: هو المربي جميع العالمين - وهم مَنْ سِوَى اللَّهِ - بخلقه لهم، وإعدادهم لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يُمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه - تعالى.

وتربيته - تعالى - لخلقه نوعان: عامة، وخاصة.

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١/ ٣٣-١٣٤) باختصار وتصرف.

(٢) انظر تفسير القرآن الكريم (الفتاحة - البقرة) (١/ ٩-١٠) باختصار وتصرف للشيخ محمد العثيمين.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاء الدُّنيا.

والخاصة: تَرْبِيَّتُهُ لأوليائه، فيربهم بالإيمان، ويوفّقهم له، ويكمله لهم، وَيَدْفَعُ عنهم الصّوارفَ، والعوائقَ الحائلةَ بينهم وبينه، وحقيقتها: تربيةُ التوفيق لكل خير، والعصمةُ من كل شر، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلّها داخلةٌ تحت ربوبيته الخاصة^(١).

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ صفة للفظ الجلالة؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ صفة أخرى؛ و﴿الرَّحْمَنُ﴾ هو ذو الرحمة الواسعة؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ هو ذو الرحمة الواصلة؛ ف﴿الرَّحْمَنُ﴾ وصفه؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ فعله؛ ولو أن جيء بـ"الرحمن" وحده، أو بـ"الرحيم" وحده لشمّل الوصف والفعل، لكن إذا اقترنا فسرَّ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالوصف؛ و﴿الرَّحِيمُ﴾ بالفعل^(٢).

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ذكر المفسرون في إيراد الاسمين مع اتحاد المعنى فيهما معاني كثيرةً مذكورةً في كتب التفسير، لم نُطَلِّ بها هنا، وأحسن ما يقال مما لم نقف عليه في تفسير: إن (فعلان) صيغة مبالغة على كثرة الشيء وعظمته، والامتلاء منه، ولا يلزم منه الدوام لذلك، كغضبان وسكران ونومان، وصيغة (فعليل) لدوام الصفة، ككريم وظريف، فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائمة، ولذلك لما تفرّد الربُّ - سبحانه - بعظم رحمته لم يُسمَّ بالرحمن - بالألف واللام - غيره^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ص (٣٩) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) تفسير القرآن الكريم (الفاخرة - البقرة) للشيخ محمد العثيمين (١ / ١١).

(٣) كشف المعاني في التشابه من المثاني للإمام بدر الدين ابن جماعة ص (٢٣).

الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة يذكرنا على مدار اليوم واللييلة أكثر من سبع عشرة مرة أنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

فهو - جل ثناؤه - من عظيم لطفه لم يذكر اسماً واحداً يدل على رحمته ولو كان ذلك لكفى.

ولكنه ﷻ يذكر اسمين يدلان على رحمته الواسعة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ورحمته الدائمة ﴿الرَّحِيمُ﴾.

ولعل من حكم ذلك أن لا يدخل القنوط من رحمته واليأس من روحه لقلوب عباده المؤمنين.

فعندما تشتدُّ بهم الكروبُ وتحيطُ بهم الخطوبُ، تأتيهم الذكرى من ربهم أنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فتنجلي همومهم، وتتبدد غمومهم ويملاً الرجاء وحسن الظنِّ وصدق الأملِ قلوبهم.

فالحمد لله رب العالمين على رحمته ولطفه، فنعم المولى ونعم النصير.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس عشر

تفسير سورة الفاتحة وتدبرها «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قوله -تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ صفة لـ ﴿اللَّهِ﴾، و﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ هو
يوم القيامة؛ و﴿الدِّينِ﴾ هنا بمعنى الجزاء؛ يعني أنه -سبحانه وتعالى-
مالك لذلك اليوم الذي يجازي فيه الخلائق؛ فلا مالك غيره في ذلك اليوم؛
و"الدين" تارة يُرادُ به الجزاء، كما في هذه الآية؛ وتارة يراد به العمل، كما
في قوله -تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ويقال: "كما تدين
تدان"، أي كما تعمل تُجازى^(١).

ومشهد يوم القيامة يمرُّ علينا في كل ركعة نركعها في صلاتنا؛ الفريضة
منها والنافلة ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، كل ذلك لئلا نغفل عن يوم الجزاء
والحساب، ولكن أين قلوبنا من مشهد خروج الناس من قبورهم حفاةً
عراةً غرلاً؟!^(٢).

(١) تفسير القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة) للشيخ محمد العثيمين (١/ ١١ - ١٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

أين قلوبنا من مشهد دُنُو الشمس من الخلق كقدر ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إجمًا؟! (١).

أين قلوبنا من مشهد ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) [عبس: ٣٤-٣٧].

أين قلوبنا من مشهد حين [يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين، فذلك حين يثيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد]؟! (٢).

أين قلوبنا من مشهد تطاير الصحف، فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره؟! (٣)

أين قلوبنا من مشهد المرور على الصراط المضروب على متن جهنم [فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مُخْدُوشٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحَبًا]؟! (٤).

فاللهم ربنا أيقظ قلوبنا من الغفلة يا رحمن يا رحيم يا رب العالمين.

وهذه الآيات أنفة الذكر اشتملت على عدة معاني منها:

(١) رواه مسلم (٢٨٦٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

١ - (اشتملت بتعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء، مَرَجُعُ الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارُها عليها، وهي "الله" و"الرب" و"الرحمن"، وبُنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مبني على الإلهية، ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمنُ الأمورَ الثلاثةَ، فهو المحمودُ في إلهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كما لان لحمده^(١).

٢ - اشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة:

(توحيد الإلهية) ودلَّ عليه اسم: "الله" فمعناه المألوه المعبود.

و(توحيد الربوبية) دل عليه اسم: "الرب".

وأما (توحيد الأسماء والصفات) فدل عليه اسم: "الله - الرب - الرحمن - الرحيم - المالك".

٣ - اشتملت على أركان العبادة الثلاثة:

(فالمحبة) دَلَّ عليها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأن الحمد هو الثناء مع المحبة والتعظيم ولو خلا من المحبة لكان مدحاً لا حمداً.

و(الرجاء) دَلَّ عليه: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾؛ لأن ذا الرحمة الواسعة الدائمة هو من يُرَجَى فضله ورحمته وعفوّه ومغفرته.

(١) مدارج السالكين (٤٨/١).

وأما (الخوف) فدلَّ عليه: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ لأن يوم الدين هو الجزاء والحساب إما إلى الجنة نسأل الله من فضله، وإما إلى النار نعوذ بالله من غضبه وعقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

أي: نختصك وحدك بالعبادة والاستعانة؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدَّم العبادة على الاستعانة؛ من باب تقديم العام على الخاص، واهتمامًا بتقديم حقه - تعالى - على حق عبده.

و"العبادة" اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

و"الاستعانة": هي الاعتماد على الله - تعالى - في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا القيام بها، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله مقصودًا بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة.

وذكر "الاستعانة" بعد "العبادة" مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته على الاستعانة بالله - تعالى - فإنه إن لم يُعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي^(١).

(قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى "لا إله إلا الله"؛ لأن معناها مركب من أمرين، نفي وإثبات.

فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله - تعالى - في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد رب السموات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع.

وقد أشار إلى النفي من "لا إله إلا الله" بتقديم المعمول الذي هو "إياك"^(٢).

إن القلب يُعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تزامياً به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء والكبر.

فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ﴾ نعبد، ودواء الكبر بـ ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٣٩).

(٢) (أضواء البيان) للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٤٩/١).

(٣) مدارج السالكين (١٢٨/١).

فأنفعُ الدعاء: طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب، إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- تأملتُ أنفعَ الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيتُه في الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مدارج السالكين (١/١٦٧).

المجلس السادس عشر

تفسير سورة الفاتحة وتدبرها «٣»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل طلب، ونيله أشرف المواهب: علم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم، توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء^(١).

(المراد بـ الصراط) الطريق، والمراد بـ (الهداية) هداية الإرشاد، وهداية التوفيق، فأنت بقولك: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ نسأل الله تعالى علماً نافعاً وعملاً صالحاً، و﴿الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه^(٢).

والحاجة إلى الهدى أعظم من الحاجة إلى النصر والرزق بل لا نسبة بينهما؛ لأنه إذا هدى كان من المتقين، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب^(٣).

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧).

(٢) القرآن الكريم (الفاتحة - البقرة) للشيخ محمد العثيمين (١/ ١٦).

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١١٦).

ومن فوائد الآية: بلاغة القرآن؛ حيث حذف حرف الجر من ﴿أَهْدِنَا﴾ والفائدة من ذلك، لأجل أن تتضمن طلب الهداية:

التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: هداية علم وإرشاد، وهداية توفيق وعمل^(١).

وهما هديتان مستقلتان لا يحصل الفلاح إلا بهما.

ومن هنا يُعلمُ اضطرارُ العبدِ إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعافُ المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه -مما نريده- كذلك، وما نعرف جملة ولا نهتدي لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كُملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التشييت والدوام^(٢).

و"اهدنا" عشر مراتب إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان؛ فيجعله عالماً بالحق مدرّكاً له.

الثانية: أن يُقدّر عليه، وإلا فهو غير قادر بنفسه.

الثالثة: أن يجعله مريداً له.

(١) تفسير القرآن العظيم سورة (الفاتحة - البقرة) للشيخ محمد العثيمين (١ / ١٦).

(٢) انظر مدارج السالكين (١ / ٥٢).

الرابعة: أن يجعله فاعلاً له.

الخامسة: أن يثبتته على ذلك، ويستمر به عليه.

السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

السابعة: أن يهديه في الطريق نفسه هداية خاصة أخص من الأولى، فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً، وهذه هداية فيها، وفي منازلها تفصيلاً.

الثامنة: أن يشهد المقصود في الطريق، ويُنبهه؛ فيكون مطالعاً له في سيره، ملتفتاً إليه، غير محتجب بالوسيلة عنه.

التاسعة: أن يشهد فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة.

العاشرة: أن يشهد الطريقين المنحرفين عن طريقها، وهما طريق أهل الغضب، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً، وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً^(١).

وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في

هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنسوب على متن جهنم.

وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط.

(١) مدارج السالكين (٤/ ٥٣٨ - ٥٣٩).

فمنهم مَنْ يَمُرُّ كالبرق، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالطرف، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم مخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار.

فليُنظر العبدُ سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة جزاءً وفاقاً، قال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] ^(١).

قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، والذين أنعم الله عليهم هم الذين عملوا به، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ﴾ [النساء: ٦٩].
إسناد النعمة إلى الله تعالى وحده في هداية الذين أنعم عليهم؛ لأنها فضل محض من الله ^(٢).

وعندما تقرأ -أيها المصلي- أو تسمع قوله -تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ينبغي لك أن تستشعر عدة معانٍ منها:

١ - أن الهداية محض فضل من الله -جل وعلا- لأن نعمة الهداية أسندت إليه جل جلاله في قوله {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}؛ فتحمد الله على الهداية وتسأله الزيادة والثبات.

(١) مدارج السالكين (٥٢/١).

(٢) تفسير القرآن الكريم (الفاحة - البقرة) (١٧-١٩).

قال الله -تبارك وتعالى- في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ) ^(١).

٢- أن تتذكر الماضين من المهدتين من النبيين، والصديقين والشهداء والصالحين. فتقتدي بهم، وتسأل الله أن تكون في زمريهم.

٣- أن تتذكر أنك لست وحدك في طريق الهدى، فلا تستوحش وإن تفردت عن أهل زمانك وبني جنسك؛ فإنه قد مرَّ بهذا الطريق قوافل كثيرة ممن اجتباهم الله واختارهم واصطفاهم، فلا تكثر بمخالفة الناكبين عن طريق الهدى؛ فإنهم هم الأقلون قدرًا؛ وإن كانوا الأكثرين عددًا ^(٢).

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

"غير" صراط "المغضوب عليهم" الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، و"غير صراط" الضالين" الذين تركوا الحق على جهل وضلال؛ كالنصارى ونحوهم ^(٣).

(١) رواه مسلم (٥٧٧).

(٢) انظر مدارج السالكين (١١ / ٧٠) بتصرف.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٣٩) طبعة مؤسسة الرسالة.

ولما أمرنا الله - سبحانه - أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم كان ذلك مما يبين أن العبد يخافُ عليه أن ينحرفَ إلى هذين الطريقين: وطريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

وكان السلف يرون: أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم ففيه شبهة من اليهود، ومن انحرف من العباد: ففيه شبهة من النصارى^(١).

فإذا عوفي من مرض الرياء ب﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعجب ب﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومن مرض الضلال والجهل ب﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَلَ في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة وكان من المنعم عليهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا فيه.

(والضالين) وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه^(٢).
وقول المصلي: آمين، معناها اللهم استجب، وهي ليست من سورة الفاتحة.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٦٥) باختصار.

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٢٨).

المجلس السابع عشر

محبة الله - جل جلاله - والشوق إليه «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

مَنْ لم يعرف جمال يوسف - عليه الصلاة والسلام - الظاهر حيث أُوتِي شطر الحسن، وَمَنْ لم يعرف جماله الباطن حيث أُوتِي الصديقية والعفة، وتاج ذلك أُوتِي النبوة، من لا يعرف ذلك قد لا يقدر لم يكن عليه أبوه يعقوب - عليه السلام - محبة وشوقاً وحزناً حتى ابضت عيناه من الحزن فهو كظيم!!^(١).

(ولله المثل الأعلى) ومن لم يعرف جمال الله - جل جلاله - لا يبكي شوقاً إليه؛ فقد قال: « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ »^(٢).

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى:

(وَمَنْ أَعَزَّ أَنْوَاعَ الْمَعْرِفَةِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ - بِالْجَمَالِ؛ وَهِيَ مَعْرِفَةُ خَوَاصِ الْخَلْقِ، وَكُلُّهُمْ عَرَفَهُ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَتَمَّهُمْ مَعْرِفَةً، مَنْ عَرَفَهُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَجَمَالِهِ، سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ)^(٣).

(١) انظر بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ١٢٢٣) بتصرف.

(٢) رواه مسلم (٩١).

(٣) الفوائد ص (٢٦٤).

والله - جل جلاله - جميل في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في نونيته:

فَجَمَّالُهُ بِالذَّاتِ وَالْأَوْصَافِ وَالـ ** أَعْمَالُ وَالْأَسْمَاءِ بِالْبُرْهَانِ
لَا شَيْءَ يَشْبَهُ ذَاتَهُ وَصِفَاتَهُ ** سُبْحَانَهُ عَنْ إِفْكَ ذِي الْبُهْتَانِ^(١)
فأما جمال الله - جل وعلا - في ذاته فلا يعرفه إلا المؤمنون إذا

دخلوا الجنة ورأوا ربهم - جل ثناؤه - جعلني الله وإياكم منهم.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - في شرحه لنونية ابن

القيم:

(الْجَمِيلُ مَنْ لَهُ نُعُوتُ الْحَسَنِ وَالْإِحْسَانِ؛ فَإِنَّهُ جَمِيلٌ فِي ذَاتِهِ ،
وَأَسْمَائِهِ ، وَصِفَاتِهِ ، وَأَفْعَالِهِ ، فَلَا يُمَكِّنُ لِمَخْلُوقٍ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ بَعْضِ
جَمَالِ ذَاتِهِ ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ،
وَاللَّذَاتِ ، وَالسُّرُورِ ، وَالْأَفْرَاحِ الَّتِي لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهَا ، إِذَا رَأَوْا رَبَّهُمْ ،
وَمَتَّعُوا بِجَمَالِهِ نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ ، وَتَلَاشَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ
الْأَفْرَاحِ ، وَوَدَّوْا أَنْ لَوْ تَدَوُّمُ هَذِهِ الْحَالِ؛ لِيَكْتَسِبُوا مِنْ جَمَالِهِ وَنُورِهِ
جَمَالًا إِلَى جَمَاهُمْ ، وَكَانَتْ قُلُوبُهُمْ فِي شَوْقٍ دَائِمٍ وَنَزْوَعٍ إِلَى رُؤْيَا رَبِّهِمْ ،
وَيَفْرَحُونَ بِيَوْمِ الْمَزِيدِ فَرَحًا تَكَادُ تَطِيرُ لَهُ قُلُوبُهُمْ ...) ^(٢).

(١) الكافية الشافعية ص (٢٤٨).

(٢) انظر توضيح الكافية الشافعية من (١١٧)، وانظر الحق الواضح المبين ص (٢٩).

وأما جمال الله - جل وعلا - في أسمائه وصفاته وأفعاله فيعرفه كل من نظر في كتاب الله وسنة رسول الله ، ونظر في كلام أهل العلم ممن يُعنى بشرح أسماء الله وصفاته وأفعاله.

فالعبد كلما ازداد معرفة وعلماً بذلك، كلما ازدادت محبته لله - جل جلاله - وكلما ازدادت محبته لله كلما ازداد شوقه إليه.

ذلك أن الشوق أثرٌ من آثار المحبة، وزيادته في القلب يزداد الشوق، وبضعفه يخبو الشوق ويضعف.

"ولله المثل الأعلى" ألا ترى أن:

١ - هناك أناساً تحبهم، ولكن لا تشاق إليهم.

٢ - وهناك أناساً تحبهم، وتشاق إليهم.

٣ - وهناك أناساً تحبهم، وتبكي شوقاً إليهم.

فأين الله - جل جلاله - في قلبي وقلبك من هذه الأصناف الثلاثة؟!

ألسنا نقول: إننا نحبُّ الله - جل جلاله - أعظمَ من كلِّ شيءٍ، إذا أين

الشوقُ إليه؟!

ألسنا نشاق لوالدينا وإخواننا وأزواجنا وأبنائنا وأصدقائنا، خاصة

عند فقدهم أو بعدهم عنا.

ألسنا نُحبُّ الله - جل جلاله - أعظمَ منهم، فأين الشوقُ إليه؟!

من منا جلس وحده فذكر عظمة الله وجماله وجلاله ففاضت عيناه

شوقاً إليه؟!!

وفي الحديث: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » وَذَكَرَ مِنْهُمْ: « رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ »^(١).

قال ابن حجر - رحمه الله تعالى - في شرح الحديث:

(قَوْلُهُ: (فاضت عيناه) أَي فَاضَتْ الدَّمْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ، وَأَسْنَدَ الْفَيْضَ إِلَى الْعَيْنِ مُبَالَغَةً، كَأَنَّهَا هِيَ الَّتِي فَاضَتْ.

قال القرطبي: وَفَيْضُ الْعَيْنِ بِحَسَبِ حَالِ الذَّاكِرِ وَبِحَسَبِ مَا يَكْشِفُ لَهُ، فَفِي حَالِ أَوْصَافِ الْجَلَالِ يَكُونُ الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَفِي حَالِ أَوْصَافِ الْجَمَالِ يَكُونُ الْبُكَاءُ مِنَ الشَّوْقِ إِلَيْهِ)^(٢).

والشوق إلى الله - جل جلاله - من أعلى وأجل أعمال القلوب ومن أشرف مقامات العبد وأرفعها.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى: (إِذَا كَانَ الشَّوْقُ هُوَ سَفَرُ الْقَلْبِ فِي طَلَبِ مَحَبُّوبِهِ وَنَزْوَعِهِ إِلَيْهِ، فَهُوَ أَشْرَفُ مَقَامَاتِ الْعَبْدِ وَأَجْلَاهَا وَأَعْلَاهَا)^(٣).

(١) رواه البخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٣٠١).

(٢) فتح الباري (١٦٨ / ٢).

(٣) طريق المهجرتين (٧٢٣ / ٢).

وقال ابن رجب - رحمه الله تعالى: (الشَّوْقُ إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ رَفِيعَةٌ تَنْشَأُ مِنْ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ يُسْأَلُ اللَّهُ هَذِهِ الدَّرَجَةَ).

خَرَجَ الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه، والحاكم من حديث عمار بن ياسر أن النبي كان يدعو بهذا الدعاء: (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ ... وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ) ^(١) ^(٢).

والشوق إلى الله - جل جلاله - على نوعين:

١ - الشوق إلى الله في الدنيا؛ وذلك بالشوق إلى قُربِهِ وحلاوةِ مناجاته والأُنسِ به والطمأنينة إليه؛ وذلك يكون بالمسارعة إلى العبادات محبة وشوقاً.

كما قال ﷺ: «أَرِحْنَا بِهَا يَا بَلَاءُ» ^(٣).

وقوله ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» ^(٤).

(١) رواه أحمد (١٨٣٢٥) وغيره، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١٢٣٧).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٣/ ٣٥١).

(٣) رواه النسائي (٦١/٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٦٨٠).

(٤) رواه أبو داود (٤٩٨٥) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤١٧١).

٢- الشوق إلى لقاء الله في الآخرة؛ وذلك بالشوق إلى رؤيته وسماع كلامه - جل ثناؤه - في الجنة.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، قال

ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن هذه الآية:

(قِيلَ : هَذِهِ تَعَزِيَّةٌ لِّلْمَشْتَاكِينَ ، وَتَسْلِيَةٌ لَهُمْ) ^(١).

وقال : « وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُّضِرَّةٍ ، وَلَا فِتْنَةٍ

مُضِلَّةٍ » ^(٢).

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مدارج السالكين (٣ / ٥١١).

(٢) سبق تخريجه ص (٨٣).

المجلس الثامن عشر

محبة الله - جل جلاله - والشوق إليه «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

دخل النبي على أمنا عائشة بعد ثمان ليال، وكانت أحب نسائه إليه فقال: " يَا عَائِشَةُ ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ رَبِّي " قَالَتْ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ قُرْبَكَ ، وَأَحَبُّ مَا يَسُرُّكَ ، قَالَتْ : فَاقَامَ وَتَطَهَّرَ ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ ، ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ ، وَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَبْكِي ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ ! قَالَ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ ! »^(١).

هكذا كان شوق النبي لربه - جل جلاله - فأين شوقنا لربنا؟

قد يقول قائل: الشوق إلى الله - جل جلاله - منزلة عالية ومقام رفيع لا يصل إليه أي أحد من الناس.

نعم الأمر كذلك، ولكن نحتاج لبيان أمر قد يغفل عنه كثير من الناس وهو:

أن محبة الله - جل وعلا - والشوق إليه قريبة من العبد جدًّا؛ إذ هي مركوزة ومكنوزة في أعماق قلبه، ومتجذرة في ضميره، خلقها الله - جل وعلا - فيه كما خلق له عينيّن ولسانًا وشفقتين، إنها الفطرة!!

(١) رواه ابن حبان وصححه الألباني في صحيح ابن حبان (٥٢٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى:

(وَالْقَلْبُ إِنَّمَا خُلِقَ لِأَجْلِ "حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى" وَهَذِهِ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهَا عِبَادَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يُنَصْرَانِهِ أَوْ يَمَجْسَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ" ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ ^(١) [الروم: ٣٠].

فالله - سبحانه - فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تُركت الفطرة بلا فسادٍ كان القلبُ عارفاً بالله، محباً له، عابداً له وحده... ^(٢).

ويقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - مبيناً أن محبة الله والشوق إليه في قلب العبد وإن غفل عنها:

(وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ مَحَبَّةٌ لِلَّهِ - تَعَالَى - وَطُمَأْنِينَةٌ بِذِكْرِهِ، وَتَنَعُّمٌ بِمَعْرِفَتِهِ، وَلَذَّةٌ وَسُرُورٌ بِذِكْرِهِ، وَشَوْقٌ إِلَى لِقَائِهِ، وَأُنْسٌ بِقُرْبِهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْسَ بِهِ؛ لِاشْتِغَالِ قَلْبِهِ بِغَيْرِهِ، وَأَنْصَرَفَهُ إِلَى مَا هُوَ مَشْغُولٌ بِهِ، فَوُجُودُ الشَّيْءِ غَيْرِ الْإِحْسَاسِ وَالشُّعُورِ بِهِ .

وَقُوَّةٌ ذَلِكَ وَضَعْفُهُ وَزِيَادَتُهُ وَنَقْصَانُهُ، هُوَ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَضَعْفِهِ وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصَانِهِ) ^(٣).

قد يقول قائل: كيف لي أن أصل إلى درجة الشوق إلى الله، وأجددُها في قلبي؟!؟

(١) رواه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٣٤ - ١٣٥).

(٣) إغاثة اللفهان في مصائد الشيطان (٢ / ٩٤٨).

إن من أهم الأسباب التي يتحقق بها - بإذن الله - الشوق إلى الله - جل جلاله - في قلب العبد عدة أمور؛ منها:

١ - إزالة الحجب - من ذنوب الشهوات والشبهات وأمراض القلوب - عن الفطرة والقلب؛ ذلك لأنها تُكدر الفطرة وتُرين على القلب؛ فتعيق وتمنع أشواق العبد إلى ربه.

ولما كان الشوق إلى الله - جلّ وعلا - أثرًا من آثار المحبة، كان لا بد له من أن يتأثر بالمحبة زيادة ونقصًا، فكلما زادت المحبة زاد الشوق، وكلما نقصت المحبة نقص الشوق.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - مبيّنًا أن وجدانَ وذوقَ وحلاوة الأنس بالله والشوق إلى لقائه بحسب قوة المحبة وضعفها: (فَلَيْسَ عِنْدَ الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ وَالْأَرْوَاحِ الطَّيِّبَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّائِيَةِ أَحْلَى ، وَلَا أَلَذُّ ، وَلَا أَطْيَبُ ، وَلَا أَسْرُّ ، وَلَا أَنْعَمُ ، مِنْ مَحَبَّتِهِ وَالْإِنْسِ بِهِ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ لِقَائِهِ - إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : وَوُجِدَانُ هَذِهِ الْأُمُورِ وَذَوْقُهَا هُوَ بِحَسَبِ قُوَّةِ الْمَحَبَّةِ وَضَعْفِهَا ، وَبِحَسَبِ إِدْرَاكِ جَمَالِ الْمَحْبُوبِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ ، وَكُلَّمَا كَانَتْ الْمَحَبَّةُ أَكْمَلَ ، وَإِدْرَاكِ الْمَحْبُوبِ أَتَمَّ ، وَالْقُرْبُ مِنْهُ أَوْفَرَ ، كَانَتْ الْحَلَاوَةُ وَاللَّذَّةُ وَالسُّرُورُ وَالنَّعِيمُ أَقْوَى)^(١).

ومحبةُ الله ﷻ في قلب العبد تنقص بقدر اقترافه للذنوب من شهواتٍ وشبهاتٍ وأمراض قلوب؛ كالكبر والفخر والخيلاء والحسد والرياء والسمعة والعجب وغيرها.

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (٢/ ٩٤٦ - ٩٤٧) طبعة دار عالم الفوائد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى: (وَالذُّنُوبُ تُنْقِصُ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ - تعالى - بِقَدَرِ ذَلِكَ) ^(١).

فعلى قدر المعاصي الظاهرة والباطنة وأمراض القلوب يكون قدر الحجب على القلب، وتُكَدَّرُ صفو الفطرة فيها، فلئن كان الكفر يُطْمِسُ الفطرة التي فطر الله الناس عليها (فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يَمُجِّسَانِهِ) ^(٢).

فإن الذنوب تُكَدَّرُ صفو القلب والفطرة وتحجبها، مما يكون له أثر في ضعف المحبة، وبالتالي تَضَعُفُ أشواق العبد إلى ربه - جل وعلا - ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعلى قدر تخلص العبد من أدران الذنوب من شهوات وشبهات، وبقدر طهارة قلبه من الأمراض، بقدر ذلك يُجَلِّي قلبه وتصفو فطرته وتزول الحجب عنهما، حينها تتحرك أشواقه إلى ربه - جل وعلا - فلا يعيقها عائق، ولا يمنعها مانع ولا يحجبها حاجب.

ويؤيد هذا قوله: « أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ، وَاسْتَغْفَرَ، سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] » ^(٣).

وبقدر ما يعصي العبد ربه - جل وعلا - يتكدر قلبه وفطرته، وبقدر ذلك تكون خسارته؛ ذلك لأنها حُجِبَتْ على القلب والفطرة تُبعد العبد عن

(١) جامع الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم (٢/ ٢٥٨).

(٢) رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤) وقال: الحديث حديث صحيح.

ربه - جلّ وعلا - وتحوّل بينه وبين محبته والأنس به والشوق إليه واللذة بمناجاته؛ والناس متفاوتون في ذلك كل بقدره.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى:

(فَالْعَبْدُ فِي حَالٍ مَعْصِيَةٍ وَاشْتِغَالِهِ عَنْهُ بِشَهْوَتِهِ وَلَذَّتِهِ، تَكُونُ تِلْكَ اللَّذَّةُ وَالْحَلَاوَةُ الْإِيمَانِيَّةَ قَدْ اسْتَتَرَتْ عَنْهُ، وَتَوَارَتْ، أَوْ نُقِصَتْ، أَوْ ذَهَبَتْ) ^(١).

٢ - تحلية القلب وتغذيته بمعرفة الله - جلّ وعلا - والعلم به عن طريق العلم بأسمائه الحسنی وصفاته العلا، علماً يورث إيماناً ومحبة وشوقاً، يتبعه عمل وسلوك.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - بعدما ذكر الباب الأول المؤدي إلى محبة الله - جلّ وعلا - وهو شهود نعمه وآلائه الحسية والمعنوية على عباده التي يتقلبون فيها ليل نهار، بل هي على عدد الأنفاس واللحظات، ذكر الباب الآخر فيقول: (وَاللَّهُ - سبحانه - دَعَا عِبَادَهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْبَابِ، حَتَّى إِذَا دَخَلُوا مِنْهُ دُعَا مِنْ الْبَابِ الْآخَرِ، وَهُوَ بَابُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الَّذِي إِنَّمَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَيْهِ خَوَاصُّ عِبَادِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ بَابُ الْمُحِبِّينَ حَقًّا الَّذِي لَا يَدْخُلُ مِنْهُ غَيْرُهُمْ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ، بَلْ كُلَّمَا بَدَأَ لَهُ مِنْهُ عِلْمٌ أَزْدَادَ شَوْقًا وَمَحَبَّةً وَظَمًا) ^(٢).

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) إغاثة اللفهان (٢/٩٤٩).

(٢) طريق المحرّتين (٢/٦٩٠ - ٦٩١).

المجلس التاسع عشر

محبة النبي ﷺ «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين^(١).

ومحبة النبي من أجل أعمال القلوب وأعلاها قال الرسول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٢).

وعن عبد الله بن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي: لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فقال: (لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)، فقال له عمر: فَإِنَّكَ الْآنَ وَاللَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فقال: «الآنَ يَا عُمَرُ»^(٣).

ولقد ضرب أصحاب الرسول أروع الأمثلة في محبتهم لرسول الله، وسأذكر بعضاً منها:

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨ / ١٠).

(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

(٣) رواه البخاري (٦٢٥٧).

١ - (بينما النبي يصلي في حجر الكعبة إذا أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمُنْكَبِهِ ودفعه عن النبي قال: أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) (١).

وفي رواية لأبي يعلى: (فأتى الصريخُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له لغدائرُ أربع، وهو يقول: ويلكم ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، قال: فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر رضي الله عنه قالت: فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمسُّ شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام) (٢).

٢ - فتح رسول الله مكة في السنة الثامنة من الهجرة، فلما دخل رسول الله المسجد، خرج أبو بكر رضي الله عنه حتى جاء بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله قال: (هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَجِيئَهُ)، فقال: يمشي هو إليك يا رسول الله، أحقُّ من أن تمشي إليه، فأجلسه بين يديه، ثم مسح رسول الله صدره، وقال: (أَسْلِمَ تَسْلَمَ) فأسلم (٣).

وروي أن أبا بكر لما بايع أباه رسول الله على الإسلام بكى، فقال النبي ما يبكيك يا أبا بكر، قال وددتُ أنها يدُ أبي طالب؛ لتقرَّ عينك.

٣ - خرج رسول الله مع أصحابه رضي الله عنهم لفتح مكة، فلما قربوا منها.

لقي العباس أبا سفيان فقدم به لخيمة رسول الله ليستأمن لأهل مكة.

(١) رواه البخاري (٣٦٤٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤٨).

(٣) المستدرك على الصحيحين (٤٤٢٠) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

فلما رآهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسرع إلى رسول الله ، ولما دخلوا جميعاً خيمة رسول الله ﷺ قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، فقال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرته، فلما أكثر عمر في شأنه قال العباس: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب ^(١).

٤- لما أرسل رسول الله عثمان بن عفان لأهل مكة؛ ليخبرهم أنهم لم يأتوا للقتال، وإنما جاؤوا عُمَرَاءَ، ولما بلغ سادات قريش وزعماءها ما أرسله به رسول الله ﷺ؛ قالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطُفْ به، فقال: ما كنتُ لأفعل حتى يطوفَ به رسولُ الله ^(٢).

٥- سئل علي رضي الله عنه كيف كان حُبكم لرسول الله ، قال: (كَانَ وَاللَّهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَبَائِنَا، وَأُمَهَاتِنَا، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَا) ^(٣).

٦- عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: (كنتُ أبيتُ مع رسول الله، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: "سَلْ". فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: "أَوْغَيْرَ ذَلِكَ؟"، قلت: هو ذاك، قال: "فَاعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ" ^(٤).

(١) انظر الرحيق المختوم (٤٠٦ - ٤٠٧).

(٢) رواه أحمد (١٩٤٢٣).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٢/ ٥٦٨).

(٤) رواه مسلم (٤٨٩).

أيها الإخوة والأخوات الكرام هل اشتقتم لنبينا ﷺ، فلقد اشتاق إليكم.

فقد قال: (وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا، فَقَالُوا: أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، إِخْوَانَنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ) ^(١).

ولكنني أخشى أن يكون ممن اشتاق إلى النبي الآن، لا يريد مقابلته، ولا أن يستضيفه في منزله رغم شوقه إليه.

أتدرون لماذا؟!!

كيف له أن يلقي رسول الله وقد خالف أمره، وترك سنته؟!!

كيف له أن يستضيفه في بيت فيه قنوات تحارب دينه تبث الشهوات والشبهات؟!!

فمن يستحي أن يراه رسول الله وحقق له ذلك، فالله -جل جلاله- أولى أن يستحيا منه الذي لا تخفى عليه منا خافية.

إن اتباع النبي ظاهراً وباطناً هو عنوان محبته -عليه الصلاة والسلام- فبقدر اتباعه تكون محبته، وبقدر التقصير في ذلك؛ إما جفاء أو غلوًا يكون قدر التفريط في محبته.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس العشرون

محبة النبي ﷺ «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:
فالناس في محبته عدة أصناف:

الصنف الأول: غَلَوْا في محبته، وبالغوا في ذلك، وأتوا بأمور لم يأمر بها
رسول الله ﷺ ولم يفعلها أصحابه رضي الله عنهم من بعد موته.
فابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله.
وهذا الصنف على قسمين:

١ - قوم أحدثوا بدعاً كالمولد النبوي، وليلة النصف من شعبان، وبعض
الأذكار التي لم ترد عن رسول الله ﷺ، أو حددوا لبعض الأذكار
العامة وقتاً أو طريقة أو عددًا، وغيرها من البدع، ولكنها بدعاً
ليست مكفرة، وغير مخرجة من الملة.
ولكن يَصْدُقُ عليها قوله: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) ^(١).

(١) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

وقوله: (إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ) ^(١).

فهؤلاء على خطر عظيم؛ لمخالفتهم هديه وسنته ﷺ

٢- قومٌ أحدثوا بدعاً مكفرةً مخرجةً من الملة؛ وذلك بصرف بعض أنواع العبادة له كدعائه، والتوسل والاستشفاع به، أو رفعه عن منزلته التي أنزلها إياه ربه؛ حيث وصفوه بصفات لا تنبغي إلا لله تعالى وحده، ومن ذلك قول قائلهم:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذِ بِهِ ** سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ
إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي ** فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ

وقوله:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ** وَمَنْ عُلُومُكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ

فإذا كانت الدنيا والآخرة من جود الرسول، ومن علومه علم اللوح والقلم، فماذا بقي لله - جل جلاله؟!

الصنف الثاني: من جفا في محبته، وهما قسمان:

١- من ردَّ سنته وقَدَّمَ عليها العقل أو الذوق أو الكشف أو أقوال الرجال.

٢- من قَصَّرَ في الأخذِ بسُنَّةِ النبي؛ وذلك بالإسراف على نفسه بالمعاصي والذنوب.

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) انظر صحيح أبي داود للألباني (٦٤٠٧).

الصنف الثالث: من أخذ بسنته ظاهراً وباطناً حذو القذة بالقذة.

فاتبعوا ولم يتدعوا، ولم يجفوا ولم يغلوا.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

وأما الصنف الأول والثاني فيخشى عليهم إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى سنته وهديه أن يُردُّوا عن حوضه والله أعلم.

فقد قال: (أَلَا لَيَذَادَنَّ رِجَالٌ عَن حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أَنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سَحَقًا سَحَقًا) ^(١).

قال النووي - رحمه الله تعالى - في شرح الحديث:

(هَذَا مِمَّا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِهِ عَلَى أَقْوَالٍ ... ثُمَّ ذَكَرَ مِنْهَا :

وَالثَّلَاثُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَصْحَابُ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى التَّوْحِيدِ، وَأَصْحَابُ الْبِدْعِ الَّذِينَ لَمْ يُخْرِجُوا بِيَدْعَتِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ) ^(٢).

وقال الشاطبي - رحمه الله تعالى:

(وَالْأَظْهَرُ: أَنَّهُمْ مِنَ الدَّاخِلِينَ فِي غَمَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؛ لِأَجْلِ مَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ فِيهِمْ ؛ وَهُوَ الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ لِأَهْلِ الْكُفْرِ الْمَحْضِ، كَانَ كُفْرُهُمْ أَصْلًا أَوْ ارْتِدَادًا ؛ لِقَوْلِهِ : (قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ)، وَلَوْ كَانَ الْكُفْرُ، لَقَالَ : "قَدْ كَفَرُوا بَعْدَكَ" وَأَقْرَبُ مَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ : تَبْدِيلُ السُّنَّةِ، وَهُوَ وَاقِعٌ عَلَى أَهْلِ الْبِدْعِ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّهُ النِّفَاقُ ؛ فَذَلِكَ غَيْرُ خَارِجٍ عَنِ

(١) رواه مسلم (٢٤٩).

(٢) شرح مسلم (٣/ ١٣٦ - ١٣٧).

مَقْصُودِنَا ؛ لِأَنَّ أَهْلَ النِّفَاقِ إِنَّمَا أَخَذُوا الشَّرِيعَةَ تَقِيَّةً ، لَا تَعْبَادًا ، فَوَضَعُوهَا
غَيْرَ مَوَاضِعِهَا ، وَهُوَ عَيْنُ الْإِبْتِدَاعِ .

وَيَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى كَمَنْ اتَّخَذَ السُّنَّةَ وَالْعَمَلَ بِهَا حِيلَةً وَذَرِيعَةً إِلَى نَيْلِ
حُطَامِ الدُّنْيَا ، لَا عَلَى التَّعَبُّدِ بِهَا لِلَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ تَبْدِيلٌ لَهَا ، وَإِخْرَاجٌ لَهَا عَنْ
وَضْعِهَا الشَّرْعِيِّ ^(١) .

ومما سبق فوائد كثيرة؛ منها:

١ - أن ورود حوضه مشروط بصدق الاتباع وعدم التبديل، وأن
الورود ليس لكل أحد وإن كان من المسلمين.

٢ - أن الحشر معه يوم القيامة وفي زمرة وتحت لوائه مشروط بصدق
الاتباع وعدم الابتداع، أو التفريط في الأخذ بسنته والركون إلى
الشهوات أو الشبهات؛ وذلك لأن صدق الاتباع هو عنوان المحبة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى:

(أَيُّ جُمُعٍ كُلِّ شَكْلٍ إِلَى نَظِيرِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾

[الصفافات: ٢٢] ^(٢) .

وقال ^(٣) : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » ^(٣) .

(١) الاعتصام (٩٦/١).

(٢) تفسير القرآن الكريم (٩٠ / ٥).

(٣) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

أَسْأَلُ اللَّهَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ، أَنْ يَجْعَلَنا وإِيَّاكُمْ ووالدينا وإِخواننا وأَزْواجنا
وذرِياتنا وإِخواننا المسلمين مِمَّنْ يَرِدُ حَوْضَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَشْرَبُ مِنْ يَدِهِ
الشَّرِيفَةِ شَرِبَةً وَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا.

وَأَنْ يَحْشِرَنا جَمِيعًا فِي زَمَرَتِهِ وَتَحْتَ لَوَائِهِ، اللَّهُمَّ آمِينَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى
مُحَمَّدٍ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

المجلس الحادي والعشرون

الخوف من الله جل جلاله «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
 نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال نافع: خرجت مع ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب
 له، فوضعوا سفرة فمر بهم راعٍ.
 فقال له عبد الله: هلمَّ يا راعي، فأصَبَّ من هذه السفرة، فقال: إني صائم.
 فقال له عبد الله: في مثل هذا اليوم الشديد حره، وأنت في الشعاب، في
 آثار هذه الغنم، وبين الجبال ترعى هذه الغنم، وأنت صائم؟!
 فقال الراعي: أبادرُ أيامي الخالية فعَجِبَ ابنُ عمر.
 قال: هل لك أن تبيعنا شاةً من غنمك نجترُرها، ونُطعمُك من لحمها
 ما تُفطرُ عليه ونعطيك ثمنها؟
 قال: إنها ليست لي إنها لمولاي.
 قال: فما عسيت أن يقولَ لك مولاك إن قلتَ أكلها الذئبُ؟
 فمضى الراعي وهو رافع إصبعه إلى السماء، وهو يقول: فأين الله؟!
 قال: فلم يزل ابنُ عمر يقول: (قال الراعي: فأين الله؟!).

فما عدا أن قدم المدينة، فبعث إلى سيده، فاشترى منه الراعي والغنم، فأعتق الراعي ووهب له الغنم^(١).

إن الخوف من الله - جل جلاله - من أجل وأعظم أعمال القلوب وأنفعها للقلب.

إذ الخوف أحد أركان العبادة التي لا تقوم إلا بها، وهي: المحبة والخوف والرجاء.

وأحد جناحي القلب في سيره إلى الله - جل جلاله - إذ (القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاها)^(٢).

والخوف من الله على مقامين:

المقام الأول: الخوف من عذاب الله.

المقام الثاني: الخوف من الله نفسه.

يقول ابن قدامة - رحمه الله تعالى - في مقامي الخوف:

(أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالنار، وكونها جزاءً على المعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر، والتفكير في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم أو سماع أخبارهم.

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٨٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٤٥).

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين قال - تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وصفاته - سبحانه - تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب^(١).

وكلا المقامين يحصل للكامل من عباد الله المؤمنين؛ كالأنبياء ومن دونهم، وذلك بحسب ورود المعاني الإيمانية على القلب. فقد تمر عليه أهوال يوم القيامة، وصفة النار وما فيها من العذاب الأليم، أو يتذكر العقوبات الدنيوية سواء حسية أو معنوية. حينها يملك القلب الخوف والرغبة.

إذ الخوف: (عِبَارَةٌ عَنْ تَأَلُّمِ الْقَلْبِ وَاحْتِرَاقِهِ بِسَبَبِ تَوَقُّعِ مَكْرُوهِهِ فِي الْإِسْتِقْبَالِ)^(٢).

وقد قال تعالى لنبيه محمد: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].

وأما المقام الثاني فلا يحصل إلا للعلماء بالله، حين تمر عليهم صفات الكمال والجلال والكبرياء والعظمة، فيتملك قلوبهم الخشية والهيبة. إذ الخشية: (خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِالْمَعْرِفَةِ)^(٣). وهي أخص من الخوف.

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ص (٣٣٣ - ٣٣٤) بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ص (٣٢٨).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٣٧).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فالخشية هي للعلماء العالمين بالله - جل جلاله.

وقال ﷺ: (إِنِّي لَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشِيَّةً) ^(١).

وسوف أذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الدالة على هذين المقامين.

المقام الأول: الخوف من عذاب الله - جل جلاله:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۗ يَعْبَادُونَ فَاتَّقُوا ۚ﴾ [الزمر: ١٦].

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٢٠].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

(وَهَذِهِ الْآيَةُ أَشَدُّ الْآيَاتِ فِي شِدَّةِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا) ^(٢).

(١) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٩٠٧).

وعن الحارث بن سويد قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَدِيثَيْنِ: أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ، وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ ، قَالَ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا) ^(١).

وعن عائشة: (أَنَّهُ ذَكَرَتْ النَّارَ فَبَكَتْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ مَا يُبْكِيكِ؟ قُلْتُ: ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيْخَفُ مِيزَانَهُ أَوْ يَثْقُلُ ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ [الحاقة: ١٩] حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ: أَفِي يَمِينِهِ ، أَمْ فِي شِمَالِهِ ، أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؟ وَعِنْدَ الصَّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ) ^(٢).

وعن هانئ مولى عثمان بن عفان قال: (كَانَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ بَكَّى حَتَّى يَبْلُغَ لَحِيَّتَهُ ، فَقِيلَ لَهُ ، تَذْكُرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَلَا تَبْكِي ، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ ! فَقَالَ إِنَّ النَّبِيَّ قَالَ: أَنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ . قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " مَا رَأَيْتُ مَنَظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ) ^(٣).

وقال رسول الله: «وَيُضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيْبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٥٥) قال محقق (جامع الأصول) (٤٧٥) حديث حسن.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٨) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٨٤).

لَا يَعْلَمُ مَا قَدَرُ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ ، وَمِنْهُمْ الْمَجَارَى حَتَّى يُنَجَّى»^(١).

وقال: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنَ النَّارِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب لما طعن: (لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَأَقْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ)^(٣).

قال ابن أبي مليكة - رحمه الله: (أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ)^(٤).

المقام الثاني: الخوف من الله - جل جلاله - وهي "الخشية":

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّكَاسَ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأثنى الله تعالى على ملائكته فقال: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾

[الأنبياء: ٢٨].

(١) رواه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (٢٩٩)، واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٥٦١)، ومسلم (٢١٣).

(٣) شرح السنة للبغوي (١٤ / ٣٧٣).

(٤) رواه البخاري (١٠٩).

وقال : « إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفَذُهُمْ ذَلِكَ فَإِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ »^(١).

وقال رسول الله : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا »^(٢).

وقال : « إِنِّي أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ ، وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »^(٣).

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) رواه البخاري (٤٧٠١).

(٢) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

(٣) رواه البخاري (٦٦٣٧).

المجلس الثاني والعشرون

الخوف من الله جل جلاله «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

(وَمَا فَارَقَ الْخَوْفُ قَلْبًا إِلَّا خَرِبَ، فَإِذَا سَكَنَ الْخَوْفُ الْقُلُوبَ أَحْرَقَ
مَوَاضِعَ الشَّهَوَاتِ فِيهَا، وَطَرَدَ عَنْهَا إِثَارَ الدُّنْيَا).

فكم أطلق الخوف من سجين في لذته كانت قد استحكمت عليه
سكرته! وكم فك من أسير للهوى ضاعت فيه همته! وكم أيقظ غافلاً
التحف بلحاف شهوته! وكم من عاق لوالديه رده الخوف عن معصيته!
وكم من فاجر في لهوه قد أيقظه الخوف من رقدته! وكم من عابد لله قد
بكى من خشيته! وكم من مسافر إلى الله رافقه الخوف في رحلته! وكم من
محب لله ارتوت الأرض من دمعه! فله ما أعظم الخوف لمن عرف عظم
منزله.

وللخوف من الله - جل جلاله - أهمية عظيمة في حياة المؤمن؛ منها:

١ - أن الخوف من الله - جل جلاله - من لوازم الإيمان.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله تعالى: (فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَجُوبَ الْخَوْفِ مِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ فَعَلَى قَدَرِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ يَكُونُ خَوْفُهُ مِنْ اللَّهِ) ^(١).

٢- أن الخوف من الله جل جلاله يُعِينُ الْعَبْدَ عَلَى إِخْلَاصِ أَعْمَالِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ ^(١) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿[الانسان: ٩ - ١٠].

٣- أن الخوف من الله -جل جلاله- من أهم الأسباب في حث العبد على المسارعة للأعمال الصالحة.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ^(٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿[النور: ٣٦ - ٣٧].

٤- أن الخوف من الله -جل جلاله- سببٌ لاجتناب المعاصي والمنكرات؛ إذ المعاصي والمنكرات من أسباب العقوبات في الدنيا والعذاب في الآخرة.

٥- أن الخوف من الله -جل جلاله- سببٌ لحفظ الله لعبده من كل سوء.

عن أنس بن مالك قال: قال النبي: (ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ) ^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (١٥٧).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٥٢)، وحسنه الألباني.

٦- أن الخوف من الله - جل جلاله - سبب للانتصار على الأعداء والتمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله تعالى:
(العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرُّسل وَمَنْ تَبِعَهُمْ جزاء ﴿لَمَن خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا ، وَرَاقَبَ اللهُ مُرَاقَبَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرَاهُ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: مَا تَوَعَّدَتْ بِهِ مَنْ عَصَانِي ، فَأَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْإِنْكَفَافَ عَمَّا يَكْرَهُهُ اللهُ ، وَالْمُبَادَرَةَ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ) ^(١).

٧- أن الخوف من الله - جل جلاله - سبب للأمان في الآخرة.
عن أبي هريرة عن النبي يروي عن ربه - جل وعلا - قال: (وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمَّنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفَّتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ^(٢).

٨- أن الخوف من الله - جل جلاله - سبب من أسباب ظل الله عبده تحت ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله.
وذكر في الحديث: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» ^(٣).

٩- أن الخوف من الله - جل جلاله - سبب لنيل رضا الله.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٤٢٣).

(٢) صحيح ابن حبان (٦٤٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٧٤٢).

(٣) رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

١٠- أن الخوف من الله - جل جلاله - سبب لدخول الجنة.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وفي ختام الحديث عن الخوف من الله - جل جلاله - نذكر الأسباب الجالبة للخوف منه - عز وجل:

١ - تَذَكُّرُ عَظَمَةِ اللَّهِ - جل جلاله - وكبريائه.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر، ثم قال: (يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: "أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ" فرجف برسول الله المنبر حتى قلنا: لِيَخِرَنَّ بِهِ)^(١).

٢- تدبُّرُ كَلَامِ اللَّهِ - جل جلاله.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله تعالى: (وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ مُؤْمِنًا عَاقِلًا قَرَأَ سُورَةَ الْحَدِيدِ ، وَآخِرَ سُورَةِ الْحَشْرِ ، وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ ، وَسُورَةَ الْإِنْخِلَاصِ ، بِتَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ لَتَصَدَّعَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ قَلْبُهُ، وَتَحْيَّرَ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ لَبُّهُ)^(٢).

٣- تدبُّرُ كَلَامِ النَّبِيِّ .

فهو إمام الخائفين وقُدوةُ المخبتين.

٤- خَوْفُ سُوءِ الْخَاتِمَةِ.

(١) رواه أحمد (٥١٤١)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) التذكرة في الوعظ ص (٧٣-٧٤).

- ٥ - الخوف من عدم قبول الأعمال.
- ٦ - تذكر الذنوب السابقة.
- ٧ - التفكير في الموت.
- ٨ - التفكير في القبر وأهواله.
- ٩ - التفكير في القيامة وأهوالها.
- ١٠ - التفكير في مشاهد يوم القيامة.
- ١١ - التفكير في النار وعذابه.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثالث والعشرون

الرجاء «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لما خرج يونس -عليه الصلاة والسلام- من قومه مُغَاضِبًا، وركب في
الفلك المشحون، كادت السفينة أن تغرق بهم، فوضعوا القرعة بينهم وفي
كل مرة تخرج على يونس -عليه الصلاة والسلام- فألقى بنفسه في البحر،
وإذا بالحوث يلتقمه، فلما استقرَّ الحوث في وَسَطِ البحر؛ أصبح -عليه
الصلاة والسلام- في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة
بطن الحوت، في مكان لا يعلم ولا يراه أحد إلا الله -جل جلاله- ورغم
هذه الظلمات الثلاث إلا أن رجاءه بربه -عليه الصلاة والسلام- كان يملأ
صدره، ويعمر قلبه، حينها دعا الله دعاء من يرجو عفو ربه وفرجه:

(لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

فجاءه الفرج: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُشَجِّي
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ويعقوب -عليه الصلاة والسلام- الذي فقد ابنه يوسف -عليه
الصلاة والسلام- سنين عددًا، وبعد ذلك فقد ابنه بنيامين.

قال لأبنائه قول مَنْ يَرْجُو فَرْجَ رَبِّهِ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، وحث أبنائه على عدم اليأس من روح الله فقال: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إن الرجاء من أجل أعمال القلوب وأعظمها؛ فهو أحد أركان العبادة، كما أنه أحد جناحي القلب في سيره إلى الله - جل جلاله. وهذه العبادة القلبية أخذت عظمتها من عظمة منشئها؛ وهو العلم بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى:

(الرجاء وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه: البرُّ المحسن فذلك التعلق والتعبُّد بهذا الاسم، والمعرفة بالله: هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري، ففوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه، ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهُدمت صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً، بل لولا روح الرجاء لما تحرَّكت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات)^(١).

والرجاء: هو الاستبشار بجود وفضل الرب - تبارك وتعالى - والارتياح لمطالعة كرمه.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٦ - ٢٢٧).

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.^(١)

ورجاء الله - جل جلاله - له أهمية عظيمة في حياة المسلم؛ ومن ذلك:

١ - أن الرجاء في قلب العبد يدلُّ على الإيمان، والعكس كذلك، ولكن بقدر قوة الإيمان يكون قوة الرجاء؛ وبقدر الرجاء في القلب يكون نفي اليأس من روح الله، والقنوط من رحمته.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله تعالى:

(ودلَّ هذا على أنَّه بحسبِ إيمانِ العبدِ يكونُ رجاؤه لرحمةِ الله وروحه)^(٢).

٢ - أن الرجاء في قلب العبد سبب لمحبة العبد لربه؛ إذ لا يمكن أن يكون العبد راجياً إلا أن يكون محباً لله.

٣ - أن الرجاء في قلب العبد يدعوه للعمل الصالح؛ لما يرجو من الأجر والثوبة في الدنيا، والجنة في الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

أما مَنْ يعتقدُ أنه يرجو الله دون عمل صالح، فذاك هو التمني وليس الرجاء.

(١) مدارج السالكين (٢/٢١٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٠٤).

٤- أن الرجاء في قلب العبد يدعو إلى التوبة والإنابة، فكلما وقع في الذنب علم أن له ربًّا يغفر الذنوب، فيتوب إليه.

قال - تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

عن أبي هريرة عن النبي فيما يحكي عن ربه ﷻ قال: (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اْعْمَلْ مَا شِئْتَ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ) ^(١).

قال النووي - رحمه الله تعالى:

(قوله ﷻ للذي تكرر ذنبه: " اْعْمَلْ مَا شِئْتَ ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ " مَعْنَاهُ : مَا دُمْتَ تُذْنِبُ ثُمَّ تَتُوبُ غَفَرْتُ لَكَ) ^(٢).

٥- أن الرجاء في قلب العبد سببٌ لتفريج الكربات، وإقالة العثرات، ومغفرة الزلات.

لقول الله - تعالى - في الحديث القدسي: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي) ^(٣).

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، واللفظ له.

(٢) شرح النووي (١٧ / ٢٣٠).

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

- ٦- أن الرجاء في قلب العبد سبب لقرب العبد من ربه وتعلقه به، فهو منقطع عن سواه، محسن الظن به متوكل عليه.
- ٧- أن الرجاء في قلب العبد ينفي عنه اليأس من روح الله، والقنوط من رحمته.
- ٨- أن الرجاء في قلب العبد سببٌ لانشراح صدره واطمئنان قلبه، فهو ثابت لا تزغزه الكروب ولا توهنه الخطوب.
- ٩- أن الرجاء في قلب العبد سببٌ للعدل والتوسط؛ إذ الرجاء يوازن الخوف في القلب فلا إفراط ولا تفريط، فالخوف والرجاء متلازمان، ومكملان لبعضهما.
- فلو وُجدَ في القلب الرجاء وحده لكان سبباً للتواكل وترك العمل.
- كما أن الخوف وحده سببٌ للقنوط من رحمة الله واليأس من روجه.
- وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.**

المجلس الرابع والعشرون

الرجاء «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

سأوردُ بعض الآيات والأحاديث الدالة على عبودية الرجاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: "إِنْ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي"»^(١).

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا

(١) رواه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١).

وأرضعته، فقال النبي: « أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ »، قلنا: لا، وهي تقدرُ على أن لا تطرحه، فقال: " اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا »^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: « إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا »^(٢).

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي قال: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »^(٣).

عن أبي هريرة عن النبي قال: « إِنَّ اللَّهَ مِئَةُ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطِفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحُمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٤).

عن معاذ بن جبل قال: كنتُ رديفَ النبي ، على حمارٍ يقال له عُفَيْرٌ، فقال: « يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ »، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: " فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٢) رواه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٤) رواه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢).

يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ : " لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا" ^(١).

بعض فوائد الرجاء:

- ١ - إظهارُ العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه العبدُ من ربه، وبتربيته من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.
- ٢ - أنه - سبحانه - يحب من عباده أن يؤمِّلوه ويرجوه، ويسألوه من فضله.
- ٣ - أن الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله، ويُطَيِّبُ له المسير، فلولا الرجاء لما سار أحد؛ فإن الخوف وحده لا يُجَرِّكُ العبدَ، وإنما يحركه الحبُّ، ويزعجه الخوفُ، ويحدوه الرجاءُ.
- ٤ - أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة، ويُلقِيهِ في دَهْلِيزِهَا؛ فإنه كلما اشتد رجاءه، وحصل له ما يرجوه، ازداد حبًّا لله - تعالى - وشكرًا له، ورضا به وعنه.
- ٥ - أنه يَبْعَثُ العبدَ على أعلى المقامات، وهو مقامُ الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حَصَلَ له مرجوه كان أدعى لشكره.
- ٦ - أنه يوجبُ للعبدِ المزيدَ من معرفة الله؛ أسماؤه ومعانيها، والتعلق به، فإن الراجي متعلق بأسماؤه الحسنَى، متعبد بها، داعٍ بها.
- ٧ - أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تَعَلُّقَ القلبِ بذكره، ودوامَ الالتفاتِ إليه بملاحظة أسماؤه وصفاته ^(٢).

(١) رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠)، واللفظ له.

(٢) انظر مدارج السالكين (٢/٢٤٠ - ٢٤١).

وفي نهاية الحديث عن هذه العبادة العظيمة تجدر الإشارة إلى أمرٍ مهمٍّ جدًّا، وهو أن حقيقة الرجاء تكون:

أ. لِمَنْ قَصَرَ فِي حَقِّ اللَّهِ، فَتَابَ وَأَتَابَ، فهو يرجو عفوَّ ربه، وغفرانَ ذنبه.

ب. لِمَنْ فَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ، فهو يرجو الثوابَ والأجرَ في الدنيا، والجنةَ في الآخرة.

أما مَنْ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، ثُمَّ إِذَا قِيلَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ وَأَقْلَعْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ، قَالَ: أَنَا أَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ، وَأَرْجُو رَحْمَتَهُ، فهذا في الحقيقة غرور، وليس برجاء!

فإنَّ اللَّهَ -جَلَّ وَعَلَا- يَقُولُ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فأمره اللَّه -جَلَّ وَعَلَا- بالعمل الصالح مع الرجاء لما عنده -سبحانه-.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الخامس والعشرون

تعظيم الله جل جلاله «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أتى رسول الله ﷺ أعرابيٌّ فقال: «يا رسول الله، جَهِدْتُ الْإِنْفُسَ،
وَضَاعَتْ الْعِيَالُ، وَنُهَكْتُ الْأَمْوَالَ، وَهَلَكْتُ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا؛ فَإِنَّا
نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ، وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَيْحَكَ!
أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟! وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زَالَ يَسْبُحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي
وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! أَنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ،
شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ؟ أَنَّ عَرْشُهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ
هَكَذَا» وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ^(١).

وعن مسروق، قال: قلت لعائشة يا أُمَّتاه هل رأى محمد ﷺ ربه؟
فقالت: "لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي"^(٢) مما قلت، أين أنت من ثلاث، من حدثكهن
فقد كذب؟ من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَا

(١) رواه الترمذي رقم (٤١٦٤) قال الذهبي: إسناده صحيح.

(٢) قَفَّ: أي قام شعري فرعاً مما قلت؛ هيبة من الله، وتعظيماً له أن يرى في الدنيا.

تُدْرِكُهُ الْآبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿[الأنعام: ١٠٣]

الحديث^(١).

إن تعظيم الله - جل جلاله - من أهم أعمال القلوب وأجلها؛ التي يتعين تحقيقها والقيام بها، وتربية الناس عليها؛ خاصة في هذه الأزمنة التي ظهر فيها ما يخالف تعظيم الله - جل جلاله - ومن ذلك:

١ - الإسراف في المعاصي والذنوب واستمراؤها حتى أصبحت والعياذ بالله من عادات بعض المجتمعات، ويوميات كثير من أفرادها.

كما قال - جل جلاله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

٢ - الاستخفاف والاستهزاء بشعائر الدين، والتسفيه والازدراء لدين الله تعالى وأهله؛ من قبل المنافقين على اختلاف مسمياتهم.

٣ - عدم تقديس وتعظيم نصوص الكتاب والسنة؛ وتقديم العقول وآراء الرجال عليها؛ من قبل أهل الأهواء والفرق الضالة، وأهل الزيغ والضلال من المنافقين وأضرابهم.

وهذه الظاهرة نسأل الله العافية قد سرت إلى بعض عامة المسلمين، فتلوثوا بلوثات أهل الزيغ والضلال؛ وتأثروا بها؛ نسأل الله لنا ولهم الهداية والثبات على دينه.

(١) رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

وأما (حقيقة التعظيم) فيوضحها الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى:
(وأعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله - وحده - نوعان:

أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله، وأعظمه وأوسع، فله العلم المحيط، والقدرة النافذة، والكبرياء، والعظمة، ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ④ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ⑤ [الشورى: ٤-٥].

وفي الصحيح عنه ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ"^(١)، فله تعالى الكبرياء والعظمة، والوصفان اللذان لا يقدر قدرهما، ولا يبلغ كنههما.

النوع الثاني: من معاني عظمته - تعالى: أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يُعْظَمَ كما يُعْظَمُ الله؛ فيستحق - جلَّ جلاله - من عباده أن يعظموه بقلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم؛ وذلك ببذل الجهد في معرفته، ومحبته، والذل له، والانكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه، وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته.

ومن تعظيمه: أن يُتَّقَى حَقُّ تَقَاتِهِ؛ فيطاع فلا يُعْصَى، ويُذَكَّرُ فلا يُنْسَى، ويُشْكَرُ فلا يُكْفَرُ.

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

ومن تعظيمه: تعظيم ما حرّمه وشرعه من زمان ومكان وأعمال:
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، ﴿ذَلِكَ
وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن تعظيمه: أن لا يُعْتَرَضَ على شيء مما خلقه أو شرّعه^(١).

وتعظيمُ الله -جل جلاله- ومحبتُهُ هما روحُ العبادة، وعلى قدر علم
العبد بربه وبأسمائه وصفاته وأفعاله يكونُ قدرُ تعظيمه في القلب، فأَعْرِفُ
الناسَ به -جل جلاله- أشدّهم له تعظيماً وإجلالاً^(٢).

وتعظيمُ الله -جل جلاله- في قلب المؤمن له أهمية بالغة في حياته،
ويتلخص ذلك في عدة أمور؛ منها:

١ - أن توحيدَ الله -جل جلاله- في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته،
مبنية على التعظيم، وَمَنْ قَصَرَ في شيء من ذلك فما عَظَّمَ اللَّهَ حَقَّ
تعظيمه، وما قدّره حقَّ قدره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى:

(فمن اعتقد الوجدانية في الألوهية لله -سبحانه وتعالى- والرسالة
لعبدِهِ ورسوله، ثم لم يُتَبَع هذا الاعتقادَ موجبه من الإجلال والإكرام، الذي
هو حالٌ في القلب؛ يظهر أثرُهُ على الجوارح؛ بل قارنه الاستخفاف والتسفيه
والازدراء بالقول أو الفعل، كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك
موجباً لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح)^(٣).

(١) الحق الواضح المبين ص (٢٧ - ٢٨).

(٢) انظر مدارج السالكين (٤٩٥/٢).

(٣) الصارم المسلول (٣٧٥/١).

٢- (أن العباد يتفاضلون في الإيمان على قدر تعظيم الله في القلوب والإجلال له، والمراقبة لله في السر والعلانية)^(١).

٣- أن تعظيم الله ﷻ هو الأساس الذي تبنى عليه كثير من أعمال القلوب التي تقوم عليها العبودية لله ﷻ، كالمحبة والحياء والخوف والرجاء والإخلاص واليقين، وبقدر قوة أو ضعف تعظيم الله ﷻ في القلب تقوى أو تضعف هذه الأعمال^(٢).

٤- أن تعظيم الله -جلّ جلاله- في قلب العبد سببٌ للسعي للطاعات والمساورة للقربات؛ لأن المعظم لله -جل جلاله- معظم لأوامره، ساعٍ إلى مرضاة ربه.

٥- أن تعظيم الله -جلّ جلاله- في قلب العبد سببٌ لتعظيم الحرمات، فهو تاركٌ للمعاصي والمنكرات، ولو وقع في شيء من ذلك بادر للتوبة والإنابة والاستغفار؛ تعظيماً لله -جل جلاله-.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى:

(وكفى بالمعاصي عقوبةً أن يضمحلَّ من قلبه تعظيم الله -جل جلاله- وتعظيم حرّماته، ويهونَ عليه حقّه)^(٣).

٦- أن تعظيم الله -جل جلاله- في قلب العبد سببٌ من أسباب حفظ قلبه من الشبهات، فإن المؤمنَ المعظمَ لربه معظمٌ لنصوص الكتاب

(١) انظر: الإيمان لابن منده (١/٣٠٠).

(٢) انظر: وما قدروا الله حق قدره لعبد العزيز الجليل ص (١٤).

(٣) الجواب الكافي ص (٦٩).

والسنة، ومن تعظيم نصوص الوحيين أن يردَّ متشابهه إلى مُحْكَمِهِ، ولا يكون كَمَنْ ذَمَّهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال عنهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

٧- أن تعظيم الله -جلَّ جلاله- في قلب العبد سببٌ للخشوع في الصلاة؛ التي هي عمودُ الدين، وهي أولُ ما يُسألُ العبدُ عنه يوم القيامة، فإن صَلَحَتْ صَلَحَ سائرُ عمله، وإن فَسَدَتْ فَسَدَ سائرُ عمله.

وصلَّى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس السادس والعشرون

تعظيم الله جل جلاله «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

(قَالَ جَعْفَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: "كُنَّا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا
أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَمَا وَجَدَ
مَالِكٌ مِنْ شَيْءٍ مَا وَجَدَ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَنَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ وَجَعَلَ يَنْكُتُ بَعُودٍ
فِي يَدِهِ، حَتَّى عَلَاهُ الرَّحْضَاءُ -يعني: العرق- ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَمَى الْعُودَ،
وَقَالَ: الْكَيْفُ مِنْهُ غَيْرَ مَعْقُولٍ، وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَالِإِيمَانُ بِهِ
وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَأَظْنُكَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ^(١).

وسأذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الدالة على تعظيم الله -جل
جلاله:

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

ذكرت هذه الآية في ثلاثة مواطن في القرآن الكريم.

(١) حلية الأولياء (٦/٣٢٥).

الأول: قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

الثاني: قال تعالى: ﴿بَتَّأْيُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

الثالث: قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - عن هذه الآيات الثلاثة: (وَاللَّهُ - سبحانه - قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ:

- ❖ لِيُثَبَّتَ عَظَمَتَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الصِّفَاتِ .
- ❖ وَلِيُثَبَّتَ وَحْدَانِيَّتَهُ ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ .
- ❖ وَلِيُثَبَّتَ مَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُلِهِ .

وَفِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ ذَمَّ الَّذِينَ مَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَهُ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَإِنْ يُجَاهِدَ فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ^(١).

وقال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٣٧/٢) باختصار.

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى:

(﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي: عَظَمَهُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُعْظَمُونَ اللَّهَ حَقَّ عَظَمَتِهِ، أي: لَا تَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَنِقْمَتِهِ^(١).

وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿[مريم: ٩٠-٩١].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - عن هذه الآية:

(أي: يَكَادُ يَكُونُ ذَلِكَ عِنْدَ سَمَاعِهِن هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ فَجَرَةِ بَنِي آدَمَ؛ إِعْظَامًا لِلرَّبِّ وَاجْتِلَالًا؛ لِأَنَّهُنَّ مَخْلُوقَاتٌ وَمُؤَسَّسَاتٌ عَلَى التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَلَدَ لَهُ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ)^(٢).

وقال - جل ثناؤه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله تعالى:

(أي: لَيْسَ يُشَبِّهُهُ - تعالى - وَلَا يُمِثُّهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَعْمَالِهِ؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَهُ كُلَّهَا حُسْنَى، وَصِفَاتِهِ

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٢٦٦).

صِفَاتُ كَمَالٍ وَعَظَمَةٍ، وَأَفْعَالُهُ تَعَالَى أَوْجَدَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ مِنْ غَيْرِ مُشَارِكٍ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؛ لِإِنْفِرَادِهِ وَتَوْحِيدِهِ بِالْكَمَالِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ الثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصَدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].^(٢)

عن ابن عمر مرفوعاً: "يَطْوِي اللَّهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّيْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّ الْمُتَكَبِّرُونَ؟"^(٣).

وعن عبد الله بن عمر: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمُنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وَرَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ بِيَدِهِ يَحْرُكُهَا، يُقْبَلُ بِهَا وَيُدْبَرُ بِهَا، يَمَجِّدُ الرَّبَّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ. فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللَّهِ الْمُنْبَرُ، حَتَّى قَلْنَا: لَيَخْرُنَّ بِهِ"^(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٧٥٤).

(٢) البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٣) رواه مسلم (٢٧٨٨).

(٤) رواه أحمد (٥٤١٤)، وأصله مسلم (٢٧٨٨).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى :

(مَا ذَكَرَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالَةِ أَنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْعَلُ هَذَا وَهَذَا ، قَدَّرَ مَا تَحْتَمِلُهُ الْعُقُولُ ، وَإِلَّا فَعَظُمَةُ اللَّهِ وَجَلَالِهِ أَجَلٌ مِنْ أَنَّ يُحِيطَ بِهَا الْعَقْلُ) ^(١).

وعن رجاء بن حيوة عن النواس بن سمعان رحمته الله قال: قال رسول الله : «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوحِيَ بِأَمْرِهِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ ، فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ أَخَذَتْ السَّمَاوَاتُ رَجْفَةً - أَوْ قَالَ : رَعْدَةً - شَدِيدَةً ؛ خَوْفًا مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَبَعُوا ، وَخَرُّوا لِلَّهِ سَجْدًا ، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَحْيِهِ مَا أَرَادَ ، فَيَمْضِي جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى الْمَلَائِكَةِ كُلِّهَا مَرَّ بِسَمَاءٍ يَسْأَلُهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ: فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ ؛ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ^(٢).

ولما قدم عيينة بن حصن على عمر بن الخطاب ، في خلافته ، قال له : (هِيَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجُزْلَ ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْخُرَّ بن قَيْسٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ لِنَبِيِّهِ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٣٤٦/٤).

(٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص (٢٠٣) وابن خزيمة في التوحيد ص (٤٤).

وَأَنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرَ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ ^(١).

(وَلَمَّا حَجَّ الْمُهْدِيُّ دَخَلَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ ، إِلَّا ابْنُ أَبِي ذَنْبٍ ، فَقَالَ لَهُ الْمُسَيَّبُ بْنُ زُهَيْرٍ: قُمْ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ: إِنَّمَا يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ الْمُهْدِيُّ: دَعِهِ ، فَلَقَدْ قَامَتْ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي رَأْسِي) ^(٢).

من ثمرات تعظيم الله - جل جلاله:

١ - محبة الله - جل جلاله - للمعظمين له المخبتين لجلاله؛ ذلك أن قلوبهم هي أحبُّ القلوب إلى الله وأقربها له.

٢ - محبة الخلق للمعظمين لربهم، ووضع القبول لهم في الأرض.

قال : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا ، فَأُحِبُّهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ » ^(٣).

٣ - السكينة والطمأنينة، وانسراح الصدر؛ ذلك أن المعظمين لله - جل جلاله - قلوبهم متعلقة بربهم، محسنة الظن به، مفوضة أمرها إليه.

٤ - حلاوة الإيمان ولذته تغمر قلوب المعظمين لله - جل جلاله - والفرح والسرور يملأ صدورهم؛ ذلك أنهم عظموا أوامر الله

(١) رواه البخاري (٤٦٤٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤٣ / ٧).

(٣) رواه مسلم (٢٦٣٧).

وشرعه وقاموا بها على أكمل وجه، وعظموا حرمانات الله،
فاجتنبوها؛ فأعقبهم ذلك حلاوة الطاعات ولذتها.

٥ - نزول رحمة الله على المعظمين له ﷺ، وتفريج كرباتهم وإجابته
لدعواتهم، ونصرهم على أعدائهم.

٦ - دخول الجنة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال الطبري - رحمه الله تعالى:

(وَمَنْ يَجْتَنِبُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِاجْتِنَابِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِهِ؛ تَعْظِيمًا مِنْهُ لِحُدُودِ اللَّهِ أَنْ يَوَاقِعَهَا وَحُرْمَةً أَنْ يَسْتَحِلَّهَا، فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ فِي الْآخِرَةِ) ^(١).

الأسباب المعينة على تعظيم الله - جل جلاله:

١ - تدبر القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلْوَالَ الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تذكر عظمة الله في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

٢ - العلم بالله ﷻ وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وآثارها.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - عن منزلة التعظيم:

(١) تفسير الطبري (١٨/٦١٨).

(هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ تَابِعَةٌ لِلْمَعْرِفَةِ، فَعَلَى قَدَرِ الْمَعْرِفَةِ يَكُونُ تَعْظِيمُ الرَّبِّ تَعَالَى فِي الْقَلْبِ، وَأَعْرِفُ النَّاسَ بِهِ أَشَدُّهُمْ لَهُ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا)^(١).

٣- دعاء الله - جل جلاله - والتضرع إليه، في أن يُرزق العبد تعظيم الله وإجلاله.

٤- كثرة ذكر الله - جل وعلا - والإقبال على الطاعات خشوعًا وإخباتًا.

٥- مصاحبة أهل التقى المعظمين لله، المختبين له.

٦- الإكثار من تذكير النفس والأهل والأولاد بعظمة الله جل جلاله.^(٢)

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) مدارج السالكين (٢٤٦٤).

(٢) انظر: (وما قدروا الله حق قدره) الشيخ عبد العزيز الجليل ص (٣٠٥) وما بعدها.

المجلس السابع والعشرون

الاقتدار إلى الله جل جلاله «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

لقد كان رجلاً شديد القوة عظيم البأس، قتل رجلاً بضربة واحدة
بيده، وخرج من بلده لوحده، قطع فيافي وقفاراً على قدميه، يسير في هجير
النهار، ويسري في ظلام الليل لا يخشى أحداً إلا الله.

ولما وصل إلى البلد التي يقصدها وقد بلغ به الجوع والنصب مبلغه،
استطاع رغم جوعه وتعبه ونصبه أن يحمل صخرة لا يحملها إلا العصبية
من الرجال أولي القوة.

ثم أوى إلى الظل، وقال بعدما تضاءلت قوته وبأسه أمام قوة الله - جل
جلاله - وجبروته، وسأل الله بقلب مفتقر متذل منكسر:

﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

جاءه - عليه الصلاة والسلام - الفرج عاجلاً: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي
عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

فأعقب الله - جل وعلا - بالفاء في قوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ الدالة على
الترتيب والتعقيب المباشر.

فجاءه الأمنُ إذ كان خائفاً: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وجاءته الزوجة إذ كان عزباً: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧].

وجاءه الرزقُ برعيه الغنم: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وجاءه المسكن والمأوى بلبثه في مدين عشر سنين: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧].
فما أعظمه من دعاءٍ وما أسرعها من إجابة.

إن الافتقار إلى الله - جل جلاله - من أعظم أعمال القلوب وأجلّها، فله المنزلة العالية، والدرجة الرفيعة؛ إذ هو روح الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، فأعمال وأقوال لا روح لها، هي موات لا نفع لها.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - مبيناً منزلة الافتقار إلى الله - جل جلاله: (هُوَ حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَلِبُّهَا) ^(١).

ومن هذا المعنى الدقيق لمنزلة الافتقار، نخلص إلى أمرين هما:

١ - أن العبد لا يمكن أن يحقق معاني العبودية لله - جل وعلا - حتى يحقق معاني الافتقار إلى الله - جل جلاله - ظاهراً وباطناً، فبقدر تحقيقه لمعاني الافتقار يكون علوه في مدارج العبودية وبقدر تقصيره في ذلك تكون منزلته في العبودية.

(١) مدارج السالكين (٣/٢٨٦).

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى:

(فَأَكْمَلُ الْخَلْقَ أَكْمَلَهُمْ عَبْدِيَّةً وَأَعْظَمَهُمْ شَهَادًا لِفَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ وَضُرُورَتِهِ إِلَى رَبِّهِ وَعَدَمَ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ طَرَفَةَ عَيْنٍ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ دُعَائِهِ ﷺ: «أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرَفَةَ عَيْنٍ»^(١).)^(٢)

٢- أن الافتقار إلى الله - جل وعلا - هو روح أنواع العباداة، وبقدرة في قلب العبد يكون أثرها عليه في أمور دينه ودنياه.

تعريف الافتقار إلى الله - جل وعلا:

يعرف ابن القيم - رحمه الله تعالى - الافتقار الحقيقي إلى الله - جل وعلا - قائلاً: (فَالْفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ: دَوَامُ الْإِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَإِنْ يَشْهَدُ الْعَبْدُ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذُرَاةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فَاقَةً تَامَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

فَالْفَقْرُ ذَاتِي لِلْعَبْدِ، وَإِنَّمَا يَتَجَدَّدُ لَهُ لِشُهُودِهِ وَوُجُودِهِ حَالًا، وَإِلَّا فَهُوَ حَقِيقِيٌّ)^(٣).

فالافتقار إلى الله - جل جلاله: هو أن يشهد العبد ويشعر بفقره وفاقته وحاجته لربه وأنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، فلا يتعلق قلبه إلا بالله ولا يعتمد على أحد إلا الله، ولا يثق بأحد من الناس حتى نفسه التي بين جنبيه، ويفوض أمره كله إلى الله.

فهو فقير إلى الله غني به عمن سواه.

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٤٥/١) وانظر (صحيح الترغيب والترهيب) (٦٥٤).

(٢) طريق المحجرتين (١٦/١ - ١٧).

(٣) مدارج السالكين (٢٨٨/٣).

وهذا الشعور يكون دائماً في كل لحظة من لحظات عمره، ويكون ذلك في كل شأنه وأمره الديني والدنيوي.

أهمية الافتقار إلى الله - جل جلاله - في حياة المسلم، تكون في عدة أمور؛ منها:

١ - أن الافتقار إلى الله - جل جلاله - لبُّ العبودية وروحها، وعلى قدر قيام القلب يكون درجته في مدارج العبودية ومنازلها.

٢ - أن الافتقار إلى الله - جل جلاله - سببٌ للتواضع وزوال الكبر والاستغناء والطغيان من قلب العبد.

قال - تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾ أَن رَّأَاهُ اسْتَعْجَلْ ۚ﴾ [العلق: ٦-٧].

٣ - أن الافتقار إلى الله - جل جلاله - سبب لتعلق العبد بربه، والاعتماد عليه.

قال ﷺ: (وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ) ^(١).

ومن صدق اللجأ إلى الله حفظه ونصره وأيده؛ وفرج كربته، وأجاب دعوته.

٤ - أن الافتقار إلى الله جل جلاله سبب لتضرع العبد وذله واستكانته لربه.

٥ - أن الافتقار إلى الله - جل جلاله - سبب لقرب العبد من ربه والأنس والفرح به ولذة مناجاته.

(١) رواه النسائي (١٠٤٠٥)؛ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٦١).

٦- أن الافتقار إلى الله -جل جلاله- سبب لكثرة الطاعات والمساورة إليها.

٧- أن الافتقار إلى الله -جل جلاله- سبب لترك الذنوب والمعاصي والحذر منها، وإن اقترف ذنباً بادر بالتوبة والاستغفار.

٨- أن الافتقار إلى الله -جل جلاله- سبب لمحبة العبد لربه -جل جلاله؛ لما يرى من جميل لطفه به، وكرمه عليه، والعناية به.

٩- أن الافتقار إلى الله -جلا جلاله- سبب لمحبة الله لعبده، فالقلوب المفتقرة لربها المتضرعة له المنكسرة بين يديه هي من أحب القلوب إلى الله -جل جلاله-.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثامن والعشرون

الافتقار إلى الله جل جلاله «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أوصى ابن قدامة - رحمه الله - أحد إخوانه قائلًا: (وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ هُوَ فِي
الْبَحْرِ عَلَى اللَّوْحِ لَيْسَ بِأَحْوَجَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى لُطْفِهِ مِمَّنْ هُوَ فِي بَيْتِهِ بَيْنَ أَهْلِهِ
وَمَالِهِ، فَإِذَا حَقَّقْتَ هَذَا فِي قَلْبِكَ فَاعْتَمِدْ عَلَى اللَّهِ اعْتِمَادَ الْغَرِيقِ الَّذِي لَا
يُعْلَمُ لَهُ سَبَبُ نَجَاةٍ غَيْرَ اللَّهِ)^(١).

إن الناس على تفرق أديانهم، وتشتت مذاهبهم وتعدد مشاربهم، وتنوع
أجناسهم، واختلاف مستوياتهم، كلهم في فقرهم إلى الله - جل جلاله - سواء.
فالمسلم والكافر، والرجل والمرأة، والكبير والصغير، والعالم والجاهل،
والطائع والعاصي، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والذكي والبليد،
والوجيه والوضيع، والرئيس والمرؤوس، والصحيح والمريض، والمعافي
والمبتلى؛ كلهم في افتقارهم إلى الله - جل وعلا - سواء.

قد يشعر الفقير والضعيف والبليد والمريض والمبتلى وغيرهم بفقرهم
إلى الله - جل وعلا - فيلجئون إليه - تبارك وتعالى - لرفع ما هم فيه من

(١) الوصية المباركة ص (٧٧).

خرج وضيق وبلاء من جانب، ولتيسير أمورهم الدينية والدنيوية من جانب آخر.

كما أن الغنيَّ والعالمَ والمستقيمَ على الطاعاتِ والقوي والذكي والوجيه وغيرهم، هم في فقرهم إلى الله - جل وعلا - سواء مثل أصدادهم وإن غفلوا عن ذلك، فغفلتهم لا ترفع عنهم حقيقة فقرهم؛ ذلك أن هذه النعم التي من الله جل وعلا بها عليهم هم فقراء إلى الله فيها من عدة جوانب:

١ - فقراء إلى الله؛ ليعينهم على شكرها لتبقى ولا تزول، وبارك الله لهم فيها: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢ - فقراء إلى الله؛ ليعينهم على الاستفادة من هذه النعم كما ينبغي.

فكم من نعمة بقيت بلا فائدة لم تستغل ولم يستفد منها!

٣ - فقراء إلى الله بأن يجعل هذه النعم حُجَّةً لهم لا عليهم.

فكم من نعمة كانت سبباً في الطغيان والتكبر والفخر والظلم، ثم سبباً في الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! سأذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار الدالة على فقر العبد لربه وحاجته وفاقته إليه؛ فمن ذلك:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

[فاطر: ١٥].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال جل ثناؤه: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

[الرحمن: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

[آل عمران: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ

مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

[آل عمران: ٢٦].

وعن النبي فيما يرويه عن ربه -تبارك وتعالى- قال:

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فاستهدوني أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فاستطعموني أَطْعَمُكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فاستكسوني أَكْسِكُمْ»^(١).

وقال: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(٢).

وقال في الأذكار بعد الصلوات المفروضة:

«اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(٣).

(١) رواه مسلم (٥٧٧).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٣٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٩٢).

(٣) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

ومعنى (ولا ينفع ذا الجد منك الجد) أي: لا ينفع صاحب الغنى منك غناه، وإنما ينفعه طاعته لك وإيمانه بك وامتناله لأمرك^(١).

وقال في دعاء الخروج من المنزل: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢).

وقال يحيى بن معاذ: (الْفَقْرُ أَنْ لَا تَسْتَغْنِي بِشَيْءٍ غَيْرِ اللَّهِ).

وقال إبراهيم بن أدهم: (طَلَبْنَا الْفَقْرَ فَاسْتَقْبَلَنَا الْغِنَى، وَطَلَبَ النَّاسُ الْغِنَى فَاسْتَقْبَلَهُمُ الْفَقْرُ).

قال بشر بن الحارث: (أَفْضَلُ الْمَقَامَاتِ اعْتِقَادُ الصَّبْرِ عَلَى الْفَقْرِ إِلَى الْقَبْرِ).

وقال أبو حفص: (أَحْسَنُ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى مَوْلَاهُ دَوَامُ الْفَقْرِ إِلَيْهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ وَمُلَازِمَةُ السُّنَّةِ فِي جَمِيعِ الْأَفْعَالِ وَطَلَبُ الْقُوَّةِ مِنْ ذِي الْجَلَالِ)^(٣).

ومصدق ذلك قول موسى - عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

فتوسَّل إلى الله - جل جلاله - في دعائه بحاله وفقره إليه.

تحقيق الافتقار إلى الله - جل جلاله - في قلب المؤمن:

لا يتحقق الافتقار إلى الله - جل جلاله - في قلب المؤمن إلا بأمرين،

(١) انظر: فقه الأدعية والأذكار للشيخ عبد الرزاق عبد المحسن البدر.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦).

(٣) انظر: طريق المحررتين (١/ ٩٦ / ١٠٥٨).

وقد ذكرهما الله - تعالى - في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

فالأمران هما:

أولاً: عِلْمُ الْعَبْدِ عِلْمًا لَا يَعْتَرِيهِ غَفْلَةٌ وَلَا نِسْيَانٌ بِعِظَمَةِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعُلَاهُ وَكِبَرِيَّائِهِ وَجَبْرُوتِهِ، وَأَنَّهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ غَنًى تَامًّا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

الثاني: عِلْمُ الْعَبْدِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ وَفَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ، عِلْمًا لَا يَعْتَرِيهِ غَفْلَةٌ وَلَا نِسْيَانٌ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ.

من علامات الافتقار إلى الله - تعالى:

١ - غَايَةُ الذَّلُّ لِلَّهِ تَعَالَى مَعَ غَايَةِ الْحُبِّ.

٢ - التَّعَلُّقُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَحَبَّاتِهِ.

٣ - مَدَاوِمَةُ الذِّكْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ.

٤ - الْوَجَلُ مِنْ عَدَمِ قَبُولِ الْعَمَلِ.

٥ - خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ.

٦ - تَعْظِيمُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

٧ - سُرْعَةُ التَّوْبَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ^(١).

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) انظر: (الافتقار إلى الله لب العبودية) للشيخ أحمد الصويان (٢١ - ٦٣) باختصار.

المجلس التاسع والعشرون

التضرع إلى الله جل جلاله «١»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله صلی الله علیه وآله وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعَصَابَةُ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ" فما زال يهتفُ بِرَبِّهِ مَا دَا يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكَبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِداؤهَ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكَبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ^(١).

إن التضرع إلى الله - جل جلاله - من أعظم أعمال القلوب وأجلها؛ لذا كان له المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين.

ومما يبين أهمية التضرع إلى الله في حياة المؤمن ما يلي:

١ - أن التضرع إلى الله - جل وعلا - والذل والانكسار بين يديه من أقرب الأبواب وصولاً إلى محبته - سبحانه وتعالى.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى: (أَنَّ الذَّلَّ وَالْإِنْكَسَارَ يَزِرْعُ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ مَحَبَّةَ اللَّهِ - جل وعلا - فَيُفْتَحُ لَهُ مِنْهَا بَابٌ لَا يُفْتَحُ لَهُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقِ ،

(١) رواه البخاري (٣٩٥٤)، ومسلم (١٧٦٣).

وَإِنْ كَانَتْ طُرُقُ سَائِرِ الْأَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ تَفْتَحُ لِلْعَبْدِ أَبْوَابًا مِنَ الْمَحَبَّةِ، لَكِنَّ الَّذِي يَفْتَحُ مِنْهَا مِنْ طُرُقِ الذُّلِّ وَالْإِنْكِسَارِ وَالْإِفْتِقَارِ وَازْدِرَاءِ النَّفْسِ، وَرُؤْيُهَا بِعَيْنِ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ وَالْعَيْبِ وَالنَّقْصِ وَالذَّمِّ؛ بِحَيْثُ يُشَاهِدُهَا ضَيْعَةً وَعَجْزًا، وَتَفْرِيطًا وَذَنْبًا وَخَطِيئَةً نَوْعٌ آخَرَ وَفَتْحٌ آخَرُ^(١).

٢- أن التضرع إلى الله -جل وعلا- هو روح الذكر والدعاء، فذكر ودعاء لا روح فيها موات لا أثر لهما ولا ثمرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى:

﴿وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ فِي آيَةِ الذِّكْرِ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾﴾ الآية^(٢)، وَفِي آيَةِ الدُّعَاءِ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الآية [الأعراف: ٥٥]، فَذَكَرَ التَّضَرُّعُ فِيهِمَا مَعًا؛ وَهُوَ التَّذَلُّلُ، وَالتَّمَسُّكُ، وَالْإِنْكِسَارُ، وَهُوَ رَوْحُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ^(٣).

٣- أن التضرع إلى الله -جل وعلا- من أهم الأسباب وأقرب الطرق لاستجابة الدعاء، ورفع البلاء، وجبر القلوب، وإغاثة الملهوف.

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى:

﴿فَمَا أَقْرَبَ الْجَبَرِ مِنْ هَذَا الْقَلْبِ الْمَكْسُورِ! وَذَرَّةٌ مِنْ هَذَا وَنَفْسٌ مِنْهُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ طَاعَاتِ أَمْثَالِ الْجِبَالِ مِنَ الْمُدْلِينَ الْمُعْجَبِينَ بِأَعْمَالِهِمْ وَعُلُومِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ﴾^(٤).

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٧٣٩ - ٧٤١)، بتصرف يسير.

(٢) أي في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف ٢٠٥].

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٩ - ٢٠).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٧٣٦).

حقيقة التضرع إلى الله - جلّ وعلا:

قال المناوي: (الضَّرَاعَةُ: الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ) ^(١).

والتضرع: هو التذلل والتمسك والانكسار لله - جل جلاله ^(٢).

ولعلنا لو رجعنا إلى المعنى اللغوي للتضرع لأفادنا في معرفة المعنى الشرعي.

فالتضرع: كلمة اشتقت من الضرع، والضرع معروف لذوات الخف من الحيوان؛ كالإبل والبقر التي يكون فيها ضرع.

والتضرع أن يأتي صغير الحيوان، فيرتضع ويلتقم هذا الثدي، فتراه عند ارتضاعه يلح ويرتفع ويحاول بكل قوته أن يجذب هذا اللبن، الذي لا يمكن أن يعيش إلا به؛ نعمة من الله وفضلاً، ففي هذه الصورة البيانية مثل لهذا التضرع الذي ينبغي للمؤمن أن يقوم به؛ فالمؤمن عند طلب حاجته من ربه - تبارك وتعالى - ينبغي أن يرفع يديه، وأن يتضرع إلى الله - سبحانه وتعالى - ويلح في الدعاء، ويجهد ويلح بحرص على ما يقيم دينه ودنياه، ويدفع عنه الشر والسوء، كما يجتهد ويلح ذلك الحيوان عندما يرتضع من الثدي أو الضرع.

ففي كل وقت وفي كل لحظة نحن لا نستغني عن الله، ولهذا كان النبي يدعو بقوله: « وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ » ^(٣).

والتضرع إلى الله - جل جلاله - من أعمال القلوب التي يتعبد المؤمن بها لله في سائر يومه وليلته؛ لأن التضرع إلى الله - جل وعلا - هو روح ولب

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (١٥ - ١٩).

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥ / ١٩).

(٣) رواه النسائي (١٠٤٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٦١).

الذكر والدعاء، والمؤمن الصادق مشغول في يومه وليلته بين ذكر مقيد أو مطلق، أو دعاء عبادة أو مسألة، والتضرع ملازم لهما.

والناس متفاوتون بقيامهم بعبودية التضرع إلى الله -جل جلاله- فبقدر استحضارهم عظمة الله وجلاله وقدره وكبريائه في قلوبهم، يكون مشهد التضرع والخضوع والذل والانكسار بين يدي الله -جل جلاله-.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المجلس الثلاثون

التضرع إلى الله جل جلاله «٢»

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
 نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

(كان الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى - إمامًا من أئمة هذه الأمة
 وعلمًا من أعلامها، وقد ابتلاه الله - جلَّ وعلا - بولد فيه نزقُ الشبابِ
 وطيشُهُ، وقد اجتهد - رحمه الله - في تعليمه وتأديبه، ولكنه عجز عن ذلك.
 فقام - رحمه الله تعالى - بين يدي ربه متضرعًا متذللًا منكسرًا مفتقرًا لله
 - جل وعلا - متجردًا من كل أحد سواه - جل شأنه - داعيًا: (اللَّهُمَّ إِنِّي
 اجْتَهَدْتُ أَنْ أُوَدِّبُ عَلِيًّا، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى تَأْدِيبِهِ فَأَدِّبْهُ أَنْتَ يَا) (١).
 فهدى الله - جل وعلا - بفضلِهِ وجودِهِ عَلِيًّا، وَعُدَّ مِنْ عِبَادِ السَّلَفِ،
 وما مات - رحمه الله - إلا وهو يصلي.

قال الذهبي - رحمه الله تعالى - عنه في ترجمته:

(مِنْ كِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ، مَاتَ قَبْلَ وَالِدِهِ، قُلْتُ: خَرَجَ هُوَ وَأَبُوهُ مِنْ
 الضَّعْفِ الْغَالِبِ عَلَى الزُّهَادِ وَالصُّوفِيَّةِ، وَعُدَّ فِي الثَّقَاتِ إجماعًا، وَكَانَ عَلِيٌّ
 قَانِتًا لِلَّهِ، خَاشِعًا، وَجَلًّا، رَبَانِيًّا كَبِيرَ الشَّانِ) (٢).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٤٥/٨).

(٢) المصدر السابق (٨ / ٤٤٢ - ٤٤٣).

وقفه:

فلكل رجل ابتلاه الله بولد عاق، أو مسرف على نفسه بالمعاصي، ولكل بيت ابتلي بنشوز الزوج أو الزوجة؛ وصدودهما عن بعضهما، عليكم بصدق التضرع إلى الله - جل وعلا - والانكسار بين يديه، وصدق التجرد لله - جل وعلا - فإنه قريب مجيب.

التضرع إلى الله - جل جلاله - في القرآن الكريم:

لقد ذكر الله - تعالى - التضرع في عدة آيات من القرآن الكريم، وهذه الآيات ترجع إلى ثلاثة أمور مهمة في حياة المؤمن؛ هي:

أولاً: التضرع إلى الله - جل جلاله - عند الدعاء.

ثانياً: التضرع إلى الله - جل جلاله - عند الذكر.

ثالثاً: التضرع إلى الله - جل جلاله - عند البأساء والضراء، وعند المصائب والكروب.

أولاً: التضرع إلى الله - جل جلاله - عند الدعاء:

قال - تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

إن التضرع إلى الله - جل جلاله - عند الدعاء له أثرٌ في إجابة الدعاء وكشف البلاء، فمن لم تُجب دعوته وتكشف كربته، فليراجع صدق تضرعه إلى الله؛ لأنه روح الدعاء، فدعاء بلا روح غير مقبول.

وسأضرب مثلاً من حياته في صدق تضرعه:

فقد قضى رسول الله عشية يوم عرفه في حالة من التضرع واللهج بالدعاء، حتى ظن أصحابه أنه قد صام يومه ذلك، فأرسلت إليه أم الفضل بقدر لبن، وهو واقف على بعيره، فشرب منه والناس ينظرون إليه، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، حتى روي بياض إبطيه، باسطاً كفيه كاستطعام المسكين، منكسراً لربه ﷻ خاضعاً خاشعاً متذلاً له، مستغرقاً في مناجاته، كأنما يسارع لحظات هذا اليوم أن تفلت لحظة لا يُلَهَجُ فيها بذكر أو يُلِظُّ فيها بدعوة، حتى إنه عندما اضطربت به راحلته، فسقط خطامها تناوله بيد، وأبقى يده الأخرى مبسوطة يدعو بها، وكان لهجاً بالثناء على الله تهليلاً وتحميداً وتلبية.

ثانياً: التضرع إلى الله - جل جلاله - عند الذكر:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

إن التضرع إلى الله والتذلل والانكسار لله - جل وعلا - عند الذكر سبب لحلاوة الإيمان والأنس والطمأنينة، وسبب للمسارة للطاعات والقربات، فمن لم يجد حلاوة الذكر والطمأنينة، فليراجع صدق تضرعه لله - جل جلاله - عند ذكره لربه؛ ذلك لأن التضرع روح الذكر، وذكر لا روح له، لا حلاوة ولا أثر له.

وسأذكر أمثلة على التضرع عند الذكر:

١- عن عبد الله بن الشخير قال: رأيت رسول الله يُصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء^(١).

٢- عن علي بن أبي طالب عن رسول الله في حديث طويل: (وَإِذَا رَكَعَ قَالَ: "اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَخَفِيَ، وَعَظَّمِي، وَعَصَبِي"، وَإِذَا سَجَدَ قَالَ: "اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسَلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ")^(٢).

٣- عن عبد الله بن عروة بن الزبير، قال: قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله إذا سمعوا القرآن، قالت: تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعُرُ جُلُودُهُمْ كَمَا نَعَتَهُمُ اللَّهُ^(٣).

ثالثاً: التضرع إلى الله - جل جلاله - عند البأساء والضراء، وعند المصائب والكروب:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأنعام: ٤٢-٤٣].

(١) رواه أبو داود (٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ص (٥٤٤).

(٢) رواه مسلم (٧٧١).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي (٣٦٥/٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾

[المؤمنون: ٧٦].

إن التضرع إلى الله - جل وعلا - والتوبة والإنابة إليه من الذنوب الخاصة والعامة التي فَشَتْ في بعض المجتمعات حتى أصبحت من عادات المجتمع وثقافته من أعظم الأسباب لا تقواء غضب الله - جل جلاله - وسخطه، ومن أعظم الأسباب كذلك في دفع البلاء قبل وقوعه، وكشفه ورفعته بعد وقوعه، سواء الأفراد والمجتمعات.

وسأضرب مثلاً من سيرته وهو الذي غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ ليتبين لنا كيف كان تضرُّعه عند نزول الكروب والشدائد:

عن أبي موسى الأشعري قال: (خَسَفَتِ الشَّمْسُ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فزعاً، يَخْشَى أَنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فَأَتَى الْمُسْجِدَ، فَصَلَّى بِأَطْوَلِ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ رَأَيْتُهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وَقَالَ: هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي يُرْسِلُ اللَّهُ لَا تَكُونُ لِمَوْتٍ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِهِ وَدُعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ)^(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (انكسفت الشمس في عهد رسول الله فقام رسول الله إلى الصلاة، وقام الذين معه، فقام قياماً فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع ... فجعل ينفخ في آخر سجوده من الركعة الثانية ويبكي ويقول: "لَمْ تَعِدْنِي هَذَا وَأَنَا فِيهِمْ، لَمْ تَعِدْنِي هَذَا وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ"، ثم رفع رأسه وانجلت الشمس)^(٢).

(١) رواه البخاري (١٠٥٩).

(٢) رواه النسائي (١٤٨٢)، انظر: صحيح سنن النسائي (١٤٨١).

من ثمرات التضرع إلى الله - جل جلاله:

١- أن التضرع إلى الله - جل جلاله - هو أوسع الأبواب وأقربها إلى محبة الله - سبحانه وتعالى - لعبده.

٢- قرب الله ﷻ من أصحاب القلوب المتضرعة المنكسرة في ذكره ودعائه؛ وهذا القرب يقتضي النصرة والتأييد، وإجابة الدعوات والقبول والإثابة.

٣- أن التضرع إلى الله - جل جلاله - هو روح الدعاء والذكر ولبُّها، وبه يجد الداعي والذاكر في قلبه حلاوة الإيمان والطمأنينة والأنس واللذة، كما يجد أثر ذلك على روحه وبدنه، بل وأثره في حياته كلها.

٤- أن التضرع إلى الله - جل وعلا - في الدعاء سبب عظيم في قرب الإجابة، وتعجيل الرزق والنصر، وكشف الكرب، وإقالة العثرة.

٥- أن التضرع إلى الله - جل وعلا - من أعظم الأسباب للوقاية من عذاب الله وسخطه قبل وقوعه، ومن رفعه بعد وقوعه.

٦- أن التضرع إلى الله - جل جلاله - من أسباب السعادة في الآخرة بدخول الجنة، والنجاة من النار.

الأسباب المعينة على التضرع إلى الله - جل جلاله:

١- معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا؛ لأن العبد من خلالها يعرف عظمة الله وقدرته وجلاله وكبريائه، وهذا يثمر في قلبه الخضوع والتضرع والتذلل له - جل جلاله -.

- ٢- نظر العبد في عيوب نفسه، ونقصه وفقره وحاجته لربه -جل وعلا- وهذا يثمر في القلب التضرع والتذلل لله رب العالمين.
- ٣- تطهير القلب من أمراض الكبر والتفاخر والتعالي؛ فإنها أمراض تناقض التواضع والتضرع والتذلل لله -جل جلاله-.
- ٤- السعي إلى ترقيق القلب والأخذ بأسبابه؛ ليتجنب العبد قسوة القلب؛ لأن ذلك مانع من موانع التضرع والتذلل لله -جل جلاله-.
- ٥- يجب على العبد التذكُّر والاتعاظ والاعتبار بما يحدث من حوله؛ سواء في مجتمعه، أو المجتمعات الأخرى من حوله.
- ٦- الحذرُ كلَّ الحذرِ من أهل الشهوات والشبهات والأهواء الذين يفسرون ما يحدث من كوارث وزلازل، وكثرة وقوع ظاهرة كسوف الشمس وخسوف القمر، وقحطٍ وجذب وفيضانات، ونقصٍ في الأموال والأنفس والثمرات، وغلاءٍ في الأسعار، وغيرها من الابتلاءات التي وقعت وتقع في مجتمعهم أو من حولهم يفسرونها بتفسيرات طبيعية دنيوية بحتة، دون النظر إلى سنن الله ﷻ في معاقبته العصاة والظالمين.
- ٧- عدم الركونُ إلى الدنيا وزخرفها، والحذر من أهلها الذين فتنوا بها؛ لأن ذلك سبب في الغفلة، وطول الأمل، وعدم الاكتراث بالندُر التي تقع مرة بعد مرة.
- ٨- مصاحبة الأخيار الذين يُذكرون المرء إذا نسي، ويعينونه إذا ذكر.

- ٩- القراءة في قصص الأنبياء وسير الصالحين، والاقتداء بهم في صدق تضرعهم لله - جل جلاله.
- ١٠- دعاء العبد ربه - جل وعلا- أن يرزقه قلبًا متضرعًا منكسرًا له - جل شأنه.
- ١١- الإكثار من تلاوة القرآن وترتيله وبخشوع وخضوع وتضرع.
- ١٢- الحرص على سماع القرآن من القراء أصحاب التلاوات الحسنة الخاشعة التي تلين القلوب.

وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يليقُ بجلاله وعظيم سلطانه، ثم الحمد له على نعمه الجليلة وآلائه الجسيمة؛ ومن ذلك ما يسر -جلّ جلاله- لي من جمع -وإن كان يسيراً- في هذا الموضوع العظيم الذي يحتاجه المؤمنُ في سائر حياته كلّها؛ في رمضان وغيره؛ ألا وهو (أعمال القلوب في مجالس رمضان).

كما أسأله -جلّ وعلا- أن يكونَ هذا الكتابَ خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعَ به كاتبه وشيخي عبد الرحمن بن ناصر البراك، وقارئه. وما كان صواب فمن الله -جلّ جلاله- وحده؛ فله الحمد والشكر، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله العلي العظيم وأتوب إليه.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جدول المحتويات

المقدمة	٣
المجلس الأول أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم «١»	٥
المجلس الثاني أهمية أعمال القلوب في حياة المسلم «٢»	٩
المجلس الثالث التأهب والتهيؤ لشهر رمضان المبارك «١»	١٣
المجلس الرابع التأهب والتهيؤ لشهر رمضان المبارك «٢»	١٧
المجلس الخامس التوبة «١»	١٩
المجلس السادس التوبة «٢»	٢٥
المجلس السابع الإخلاص	٣١
المجلس الثامن الصدق مع الله جل جلاله	٣٦
المجلس التاسع حسن الظن بالله جل جلاله «١»	٤٢
المجلس العاشر حسن الظن بالله جل جلاله «٢»	٤٧
المجلس الحادي عشر الخشوع في الصلاة «١»	٥١
المجلس الثاني عشر الخشوع في الصلاة «٢»	٥٥
المجلس الثالث عشر عظمة القرآن الكريم	٥٧
المجلس الرابع عشر تفسير سورة الفاتحة وتدبرها «١»	٦٢
المجلس الخامس عشر تفسير سورة الفاتحة وتدبرها «٢»	٦٨

٧٤	المجلس السادس عشر تفسير سورة الفاتحة وتدبرها «٢»
٨٠	المجلس السابع عشر محبة الله - جل جلاله - والشوق إليه «١»
٨٦	المجلس الثامن عشر محبة الله - جل جلاله - والشوق إليه «٢»
٩١	المجلس التاسع عشر محبة النبي ﷺ «١»
٩٦	المجلس العشرون محبة النبي ﷺ «٢»
١٠١	المجلس الحادي والعشرون الخوف من الله جل جلاله «١»
١٠٨	المجلس الثاني والعشرون الخوف من الله جل جلاله «٢»
١١٣	المجلس الثالث والعشرون الرجاء «١»
١١٨	المجلس الرابع والعشرون الرجاء «٢»
١٢٢	المجلس الخامس والعشرون تعظيم الله جل جلاله «١»
١٢٨	المجلس السادس والعشرون تعظيم الله جل جلاله «٢»
١٣٦	المجلس السابع والعشرون الافتقار إلى الله جل جلاله «١»
١٤١	المجلس الثامن والعشرون الافتقار إلى الله جل جلاله «٢»
١٤٦	المجلس التاسع والعشرون التضرع إلى الله جل جلاله «١»
١٥٠	المجلس الثلاثون التضرع إلى الله جل جلاله «٢»
١٥٨	الخاتمة
١٥٩	جدول المحتويات